

25.2.2022

يوري أوليشا

الحسد

ترجمة

يوسف نبيل

الحسد

يوري أوليشا

(Yuri Olesha)

ترجمها عن الروسية

يوسف نبيل

الحسد

يوري أوليشا

(Yuri Olesha)

هـذا الكتـاب صـادر عـن مشـروع «مـدْ» للترجمـة الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشـر والتوزيـع ضمـن مبـادرة إثـراء المحتـوى إحـدى مبادرات مركـز الملـك عبـد العزيـز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الروسية لكتاب:
Зависть (ЮрийОлеши)

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ⓒ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أوليشا، يوري
الحسد. / يوري أوليشا ؛ يوسف نبيل - ط١ - الرياض ، ١٤٤٢هـ
٢٤٨ ص ؛ ٢١ * ١٤ سم
ردمك: ٩-٢٢-٦١٢٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - القصص الروسية أ. نبيل ، يوسف (مترجم) ب. العنوان
ديوي ٨٩١,٧٣٠٣ ١٤٤٢/٤٤١٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤٤١٢
ردمك: ٩-٦١٢٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م



info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

مقدمة المترجم

يعتبر يوري أوليشا (١٨٩٩م - ١٩٦٠م) واحدًا من ألمع الكتاب الروس في القرن العشرين بجانب بعض معاصريه مثل: ميخائيل زوشينكو - ميخائيل بولجاكوف - إسحاق بابل. واجه هذا الجيل مصاعب جمة لقول ما يريده إبان تلك الفترة القمعية من تاريخ روسيا، ودفع بعضهم ثمنًا فادحًا لانحيازاته الفنية والأخلاقية، سواء أفضى ذلك بهم إلى موت عيني أو أدبي في تلك الفترة.

وُلد يوري أوليشا لوالدين كاثوليكيين من أصل بولندي في إحدى المدن الأوكرانية، وانتقل مع عائلته في عام ١٩٠٢م إلى العيش في أوديسا حيث التقى هناك بمجموعة من الكتاب المعاصرين له مثل بابل وفالنتين كاتايف. التحق يوري بكلية الحقوق، ثم أجّل دراسته لتطوعه في الجيش الأحمر أثناء الحرب الأهلية، وكان مناصرًا للثورة آنذاك.

بدأ عمله الأدبي بانضمامه إلى مجموعة أدبية تدعى

«المصباح الأخضر»، ضمّت العديدَ من الأسماء الأدبية، وأنتج في تلك الفترة مواد دعائية للثورة، ونشر في تلك المرحلة مجموعات قصصية ومجموعات شعرية، لكن شهرته الحقيقية بدأت بظهور روايته الوحيدة «الحسد» في عام ١٩٢٧م، التي تُعدُّ إلى حدٍّ كبير أفضل أعماله. كتب أوليشا كذلك أعمالا مسرحية عديدة، وبمرور الوقت وجد صعوبة شديدة في نشر أعماله إبان الرقابة الستالينية، ولذلك تعثرت مسيرته الأدبية حتى توفي بمرض القلب في عام ١٩٦٠م.

الحقيقة أن رواية «الحسد» محيرة ومربكة إلى حد بعيد، ولذلك تباين موقف مستقبليها وتفسيرهم لموقف الكاتب منها، لكن الأمر المؤكد أنه يصعب جدًا أن تخلو منها قائمة تضم أعظم وأشهر الأعمال الأدبية الروسية في النصف الأول من القرن العشرين.

تتناول الرواية واحدة من أهم الأفكار التي أُثيرت على الساحة في بداية العصر السوفيتي؛ إنها قضية «المواطن السوفيتي الجديد». طرح لينين والسلطة السوفيتية الأولى تصورًا محددًا عن المواطن السوفيتي وهو تصوّر «البطل الاشتراكي» الذي امتلأت به صفحات الأعمال الدعائية للسلطة التي انتهجت

أسلوب الواقعية الاشتراكية. في هذا العمل يكشف لنا «الحسد» عن رجلين يرفضان النظام السوفيتي الجديد، ويحسدان أبطاله الجدد، ويندّدان بقيمه الآلية التي ستقضي على كافة المشاعر والعواطف في سبيل الأيدولوجيا وسيطرة الآلة، لكن الفشل يلازمهما طوال الوقت. يغوص العمل في تناقضات معقدة بين العالم القديم والجديد، الأغنياء والفقراء، الكراهية والحب. هذه الصراعات هي التي شكلت المجتمع السوفيتي الجديد في تلك الفترة، وبالتالي تُطرح التساؤلات عن ماهية البطل الحقيقي وسُبُل الخلاص. «الحسد» رواية عن روسيا التي لا تصدق في فترة مربكة للغاية؛ روسيا المليئة بالأحلام والأكاذيب والخداع، وبالطبع: «الحسد». نتوه في العمل بين ما هو حقيقي وما هو مُتخيل، وبين الدوافع الحقيقية للشخصيات، ويواجه القارئ أسئلة تصعب الإجابة عنها، حيث تتشكل بنية الرواية في الأساس على شبكة من الأكاذيب.

لا عجب إذن من موقف السلطة من الرواية، حيث شعرت أن خطوطها الرئيسة تناصرها ولذلك رحبت بها بحذر. لكن قراءة القصة من منطلق أنها تشكل دعاية للسلطة تُعدُّ قراءة شديدة السطحية، فالمتاهة شديدة التعقيد، وربما أُجبر الكاتب على ذلك نسبيًا ليتهرب من وطأة الرقابة.

تكشف الحسد عن مفارقة مريرة؛ إن أوليشا الذي كان واحدًا من مناصري النظام السوفيتي الجديد بحرارة حد أنه تطوع في صفوف الجيش الأحمر، لم يتمكن من أن يصبح المواطن السوفيتي الجديد الذي صاغت السلطة قوالبه، وهو الموقف ذاته الذي واجهه كثير من الكتَّاب الذين ناصروا السلطة السوفيتية في البداية مثل الشاعر المرموق: ماياكوفسكي.

من الناحية الفنية نلمح تأثيرات عدة في العمل. لا يمكننا مثلا تجاهل تشابه أحد أبطال العمل «كافاليروف» ببطل رواية دوستويفسكي: «في قبوي»؛ خاصة عندما ينطلق في مونولوجاته الطويلة المفاجئة. تذكرنا بنية الرواية أيضًا برائعة بولجاكوف: المعلم ومارجريتا في نواحٍ عديدة.

تُعبِّر الرواية فنيًا أيضًا عن تطور مذهل في الكتابة الروسية الحديثة في تلك الفترة، حيث تشتمل بنية السرد على نوع شديد الغرابة من السخرية والهجاء، تذوب فيه الفوارق بين الواقع والحِلم، ويؤدي كل ذلك إلى حتمية الشعور بالدهشة من تطور وغرابة أسلوب أوليشا في كتابة العمل.

تطرح لنا «الحسد» تساؤلات عديدة، وتتركنا في حالة

من الارتباك والمفاجأة في نهاية العمل، كما تدهشنا بسردها ومجازاتها الرائعة.

في النهاية لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أسرة دار «أدب» للنشر والتوزيع لتعاملها الراقي والمحترف معي كمترجم في كل خطوات العمل؛ بداية من أولى خطوات التعاقد، مرورًا بحرصها على حفظ الحقوق المادية والمعنوية، وانتهاءً باهتمامها بعمليات المراجعة والتنقيح في خطوات تشي بعمل مهني دقيق؛ للوصول إلى أفضل نتيجة ممكنة.

الجزء الأول

-١-

في الصباح يغني في المرحاض. يمكنكم أن تتصوروا مدى مرحه وقوته. تتملكه الرغبة في الغناء بشكل لا إرادي. أغانيه لا تتضمن لحنًا ولا كلمات، بل هي محض دندنة: «تارا... تارا»، يهتف بها بنغمات مختلفة، ويمكن تفسيرها على النحو الآتي:

- كم تطيب لي الحياة! تارا... تارا! أمعائي مرنة... را تا تا تا را ري... تتحرك العصارات بداخلي كما ينبغي. تقلصي يا أمعائي تقلصي... ترام با با بوم!

عندما يخرج من غرفة نومه صباحًا ويمرُّ بي - بينما أتظاهر بالنوم - متوجهًا إلى الباب المؤدي إلى أمعاء الشقة؛ أي المرحاض، تلاحقه مخيلتي. أسمع ضجيجًا صادرًا من الداخل حيث يضيق المكان بجسده الضخم. يفرك ظهرُه البابَ من الداخل، ويصدم مرفقاه الجدار، ويدق الأرض بقدميه. يكسو الصقيع مرآة بيضاوية على باب الحمام. يُطفأ القابس

الكهربائي، فتُضاء المرآة البيضاوية من الداخل وتبدو كبيضة رائعة بلون الحجر الكريم. يمكنني بمخيلتي أن أرى هذه البيضة مدلاة في ظلام الرواق. إنه رجل يزن ستة بود[1]. بينما كان يهبط درجات السلم في مكان ما منذ فترة قريبة، لاحظ كيف يرتج صدره متوافقًا مع إيقاع خطواته. لذا قرر إضافة فصل جديد إلى تمريناته الرياضية. إنه نموذج مثالي للقوة.

عادة لا يمارس تمريناته في غرفته، بل في تلك الغرفة التي ليس لها استخدام؛ الغرفة التي أقطن فيها. إنها أوسع وأكثر تهوية وأقوى سطوعًا. تتدفق البرودة من باب الشرفة المفتوح. يُضاف إلى ذلك توفر حوض غسيل فيها. يأتي بالحصيرة من غرفة نومه. إنه عار حتى خصره، يرتدي سروالا داخليًا محبوكًا بزر واحد في منتصف البطن. يدور عالم الغرفة الأزرق والوردي منعكسًا على صفحة الزر اللامع. عندما يستلقي بظهره على الحصيرة ويبدأ في رفع ساقيه بالتبادل، لا يصمد الزر وينفتح، وينكشف أسفل بطنه. إنها عظيمة حقًا. البقعة القاتمة بعض الشيء... الزاوية المِحظورة... أربية شخص مُنتج بحق. إنه ذات المنظر لأربية زغبية زال بريقها لذكر ظبي. لا بد أن تيارات الحب تخترق تلك

---

(١) البود وحدة وزن روسية تُقدَّر بـ ١٦,٣٨ كيلو جرامًا.

الفتيات اللاتي يعملن سكرتيرات ومعاونات له من نظرة واحدة وحسب.

يغتسل كصبي؛ يُصفر ويرقص وينخر ويصيح. يملأ قبضتيه بالماء، وقبل أن يصل الماء إلى إبطيه يرشه على الحصيرة. يتساقط الماء عليها فتبدو قطرات كاملة ونظيفة. أما الرغوة المتساقطة في الحوض فتبقبق كفطيرة. أحيانًا يعميه الصابون، فيحك جفنيه بأصابعه الكبيرة بقوة وهو يشتم. يغرغر حلقه بصوت مرتفع. يتوقف الناس أسفل الشرفة ويرفعون رؤوسهم صوبها.

اليوم أكثر الصباحات وردية وهدوءًا. الربيع في أوجه. أحواض الزهور على حواف جميع النوافذ. تتسرب من بين شقوقها حمرة الأزهار التامة.

الأشياء لا تحبني. يحاول الأثاث أن يُعثر قدمِي. ذات مرة حدث أن عضتني إحدى الزوايا المطلية. علاقاتي بالدثار شديدة التعقيد. الحساء الذي يُقدَّم لي لا يبرد أبدًا. إن سقط أي شيء تافه من المنضدة، كعملة صغيرة أو زر، يستقر عادة أسفل قطعة أثاث لا يمكن تحريكها إلا بصعوبة. أزحف على الأرض وأرفع رأسي وأرى دولاب الطعام؛ فيبدو كما لو أنه يسخر مني.

حمالتا سرواله الزرقاوتان متدليتان على جانبه. يسير في غرفة النوم ويجد نظارته على الطاولة. يرتديها أمام المرآة ثم يعود إلى غرفتي. يقف في منتصفها ويرفع حمالتا سرواله في الوقت ذاته بحركة تبدو كما لو أنه يرفع حمولة فوق كتفيه. لا يقول لي كلمة واحدة. أتظاهر بالنوم. تتركز الشمس على الصفحتين المعدنيتين لحمالتي سرواله في حزمتين ضوئيتين متوهجتين. الأشياء تحبه.

لا يحتاج إلى تمشيط شعره، أو ترتيب شاربيه أو لحيته، شعره مقصوص بشدة، وشارباه قصيران، قابعان أسفل أنفه مباشرة. منظره أقرب إلى صبي بدين. تناول قنينة وتعالى صرير سدادتها الزجاجية. سكب عطرًا على راحة يده ومررها على رأسه؛ من جبهته حتى قذاله، ثم العكس.

يشرب في الصباح كوبين من اللبن البارد. يتناول الإبريق الصغير من الخوان، يصب ويشرب واقفًا.

صعقني انطباعي الأول عنه. لم يكن بإمكاني أن أفترضه أو أخمِنه من قبل. وقف أمامي في حلته الرمادية الأنيقة، تفوح منه رائحة العطر. كانت شفتاه نقيتين ومنتفختين بعض الشيء. تبين أنه غندور.

حدث كثيرًا أن استيقظت ليلا بسبب شخيره. لا أستطيع أثناء النوم أن أفهم ماذا حدث. يبدو لي كما لو أن أحدهم يتمتم مهددًا: «كراكاتو... كررا... كا... تووووو».

منحوه شقة رائعة. يا لها من مزهرية منتصبة، على قاعدة مطلية أمام درفتي الشرفة! إنها مزهرية رقيقة من الخزف الصيني، مستديرة وضخمة، تتوهج عليها حمرة رقيقة. تُذكِّر المرء بطائر البشروش (الفلامنجو). الشقة في الطابق الثالث، تتدلى شرفتها في قلب الفراغ. يبدو شارع الضاحية الواسع كطريق سريع. على الجانب الآخر من الطريق ثمة حديقة ضخمة؛ تقليدية على طراز حدائق ضواحي موسكو، ممتلئة بالأشجار الكثيفة غير المنتظمة؛ أشجار قد نمت دون ترتيب في الفراغ الموجود بين ثلاثة أسوار، كما لو أنها داخل موقد.

إنه نهم. يتناول غداءه في الخارج. عاد مساء الأمس جائعًا، وقرر أن يتناول وجبة خفيفة. لم يجد شيئًا في دولاب الطعام. نزل إلى الشارع وتوجه إلى المتجر عند الناصية، وجلب كومة من الأطعمة: ٢٥٠ جرامًا من لحم الخنزير، علبة إسبرط[١]،

---

(١) نوع من سمك الرنجة.

وعلبة سمك أسقمري، ورغيف ضخم، وقطعة كبيرة من الجبن الهولندي على هيئة نصف قمر، وأربع تفاحات، وعشر بيضات، وفاكهة مجففة سائلة من نوعية: «البازلاء الفارسية». كما طلب عجة بيض وشاي. ثمة مطبخ عام في البناية، يعمل فيه طاهيان بالتناوب.

دعاني وقد انخرط فعلا في تناول الطعام قائلا:

- هيا افترس الطعام!

تناول البيض من المقلاة مباشرة، وقد فصل بياض البيض كما لو أنه يكشط مينا الطلاء. امتقعت عيناه بالدم. خلع نظارته وارتداها ثانية، وأخذ يلوك الطعام وينخر، وكانت أذناه تتحركان أثناء ذلك. سلَّيت نفسي بمراقبته. هل لاحظتم من قبل كيف يتساقط الملح من على نصل السكين، دون أن يترك أثرًا، ويلمع السكين كما لو أن أحدًا لم يلمسه من قبل، حتى أن النظارة تتحرك على قصبة الأنف كالدراجة، وتحيط بالمرء نقوش صغيرة تتناثر ككثِيب النمل، على الشوك والمعالق والأطباق وإطار النظارة والأزرة والأقلام الرصاص؟ لم يلحظ أحد كل ذلك. تخوض هذه الأشياء صراعًا من أجل البقاء، وتتحول من نوع لآخر حتى

ينتهي بها الأمر إلى حروف ضخمة على إحدى اللافتات! تثور طبقة ضد الأخرى. وتناضل حروف أسماء الشوارع حروف الملصقات الإعلانية.

أكل حتى التخمة. تناول التفاح بسكينه، لكنه اكتفى بقطع قشرة التفاح الصفراء وإلقائها بعيدًا.

امتدحه أحد مفوضي الشعب[١] ذات مرة في حديثه قائلا:

- أندريه بابيتشيف واحد من أبرز مواطنينا. يشغل أندريه بيتروفيش بابيتشيف وظيفة مدير اتحاد الصناعة الغذائية. إنه صانع سجق عظيم وحلواني وطاهٍ رائع.

أما أنا - نيكولاي كافاليروف - أبدو في حضوره كمهرج.

-٢-

إنه يدير كل ما يتعلق بالطعام.

صاحبنا شَرِه وحسود. يود لو يقلي بنفسه أي بيض وكافة

---

(١) أعضاء مفوضية الشعب وهي أعلى مجلس تنفيذي في الفترة من ١٩٢٣ - ١٩٤٦م.

الفطائر وكرات اللحم، ويخبز الخبز كله بنفسه. يود لو بإمكانه أن ينجب الطعام، وقد أنجب فعلا الـ«ربع روبل»[١].

يستمر طفله في النمو. سيصبح الـ«ربع روبل» مؤسسة عملاقة، سيصبح بمثابة الطاولة الأكبر والمطبخ الأعظم. إنه غداء مكون من طبقين يُكلِّف المرء ربع روبل وحسب.

أُعلنت الحرب بين المطابخ.

يمكن أن نقول إنه قد تم إخضاع ألف مطبخ.

سيضع حدًا للطعام بيتي الصنع وثُمن الرطل والزجاجات الصغيرة. سوف يُوحِّد كافة فرَّامات اللحم ومواقد الطهو والقلايات والصنابير... إن شئتم يمكن القول إنه سوف يُحوِّل الطهي في المطابخ إلى عملية صناعية. ألَّف مجموعة من اللجان بالفعل. أعد المصنع السوفيتي ماكينات خاصة بتنظيف الخضروات، وبدت رائعة. شيَّد مهندس ألماني مطبخًا. مؤسسات عديدة تنفذ التعليمات البابيتشيفية[٢].

---

(١) الروبل هو الوحدة الأساسية لعملة روسيا وهو العملة الرسمية المتداولة اليوم في روسيا.

(٢) نسبة إلى بابيتشيف.

عرفت عنه الآتي...

إنه مدير اتحاد، يحمل حقيبته أسفل ذراعه. مواطن ذو هيئة رسمية شديدة الوضوح، وقد صعد درجات مجهولة لممر خلفي وطرَق أول باب لِقيَه. أشبهه بهارون الرشيد حينما زار مطبخًا في أحد بيوت العاملين بالضواحي. رأى السخام والأوساخ يستعران بجنون وسط الدخان وبكاء الأطفال. انقض كل شيء عليه فورًا. أزعج هذا العملاق الجميع، واقتطع منهم المكان والنور والهواء. بالإضافة إلى ذلك كان يحمل حقيبة، ونظارة فوق أنفه، وبدا أنيقًا نظيفًا. اندلعت فورات الغضب. قالوا في أنفسهم إنه بالطبع عضو إحدى اللجان. علقت ربات المنازل أيديهن على خصورهن وهاجمنه؛ فانصرف. صحن فيه بغضب، وبسببه انطفأ وابور الجاز، وانفجر الكأس، وزاد قدر الملح في الحساء. غادر دون أن يقول ما أتى لقوله. إنه لا يتمتع بمخيلة قوية. كان عليه أن يقول:

- أيتها النساء: سوف ننزع عنكن السخام، وننظف مناخر أنوفكن من الدخان، وآذانكن من الضجيج، سنجبر البطاطس على خلع قشرتها في لحظة واحدة، ونعيد إليكن الساعات التي سرقتها المطابخ منكن. ستستعدن

نصف حياتكن مجددًا. أنتِ أيتها الشابة: تطهين حساءً لزوجك، وتقضين في إعداد هذه البركة الصغيرة نصف يومك! سنحوِّل برككن الصغيرة هذه إلى بحر لامع؛ ونسكب حساء الملفوف كما نسكب من المحيط، ونشكل بالعصيدة روابي، ونجعل الجيلاتين كالنهر الجليدي. استمعن إليَّ يا ربات البيوت وانتظرن! نعدكن بالآتي: ستغرق الشمس قرميد أرضياتكن، وستلمع أدواتكن النحاسية، وتصبح أطباقكن نظيفة كالزنبق، وألبانكن كثيفة كالزئبق، وستفوح رائحة عطرة من حسائكن حتى تحسدها الزهور الموضوعة على طاولاتكن.

إنه كالقديس الذي يمكنه أن يظهر في عشرة مواضع في اللحظة ذاتها.

يضيف مشابك الورق إلى الأوراق الرسمية كثيرًا ويضيف خطوط التأكيد أسفل الكلمات، ويخشى ألا يفهموا مراده ويختلط عليهم الأمر.

هاكم بعض نماذج كتابته:

إلى الرفيق بروكودين

فلتُعد أغلفة حلوى (١٢ عينة) حسب رغبة العميل، خاصة بـ (شيكولاتة - بونبون) ولكن بطريقة جديدة. لا تجعلها «روزا لوكسمبورج[١]» (عرفت أن لديهم بالفعل حلوى من هذا النوع!!) والأفضل أن يُستقى الاسم من أحد العلوم (من الشعر - من الجغرافيا؟ من علم الفلك؟) ويكون اسمًا جادًا ونطقه جذاب: «اسكيمو مثلا؟» - «تليسكوب؟» اتصل بي تليفونيًا غدًا الأربعاء بين الساعة الواحدة والثانية، سأكون في العمل. الأمر ضروري.

إلى الرفيق فومينسكوم

فلتصدر أمرًا بوضع قطعة لحم (مقطوعة بدقة كما في المطاعم الخاصة) في كل طبق أول (من فئة غداء ٥٠ - ٧٠ كوبيكًا). راقبهم بدقة لإتمام ذلك. أحقًا يحدث الآتي:

---

(١) منظّرة ماركسية وفيلسوفة واقتصادية وإشتراكية ثورية من أصول بولندية يهودية.

١ - يقدمون مقبلات الجعة بدون صينية؟
٢- حبات البازلاء صغيرة، منقوعة على نحو سيئ؟

ضيق الأفق، شكاك، موسوس، كعظمة الترقوة[١] وصل في العاشرة صباحًا من مصنع الكارتون. كان ثمانية أشخاص في انتظاره. استقبل كلًّا من:

١ - مدير معمل التدخين[٢].
٢- مفوض اتحاد مصنع تعليب الشرق الأقصى. (وقد أخذ بعض علب السلطعون وهرع خارج المكتب ليريها لشخص ما، وبعودته نظَّم العلب في صف بجوار مرفقه، ولم يستطع أن يهدأ لمدة طويلة، وقد ظل طوال الوقت ينظر إلى العلبة الزرقاء، يبتسم ويحك أنفه)
٣- مهندس أتاه من موقع بناء المستودع.
٤- ألماني مسئول عن الشاحنات. (تحدثا بالألمانية. لا بد أنه أنهى الحوار بحِكمة ما، لأنها بدت مُنغَّمة، وضحك كلاهما في نهايتها)

---

(١) عظمة الترقوة تتكون من عظم إسفنجي محاط بقشرة وعظم أدمي، وربما يشير الكاتب إلى ضعفها وبروزها.
(٢) تدخين اللحم أو السمك.

٥- فنان أتاه بمشروع ملصق إعلاني. (لم يرق له الملصق، وقال إن اللون الأزرق يجب أن يكون قاتمًا كيميائيًا، غير رومانسي)

٦- مقاول ومدير مطعم يرتدي زر زينة على كم قميصه على شكل أجراس حليبية اللون.

٧- رجل رث الثياب بلحية متمعجة، تحدث عن قطعان ماشية.

٨- أخيرًا أحد سكان القرى المرحين.

كان لهذا اللقاء الأخير طابع خاص. نهض بابيتشيف، وتقدم صوبه فاتحًا ذراعيه يكاد يحتضنه. ملأ حضور هذا الرجل المكتب بأكمله، وقد بدا آسرًا بخراقته، خجولا، مبتسمًا، أسمر اللون، حاد البصر، كليفين من رواية تولستوي[١]. تفوح منه رائحة زهور الحقل والألبان. دار الحوار عن السوفخور[٢]. لاح على وجوه الحاضرين تعبير غذائي.

في الرابعة وعشرين دقيقة ذهب لحضور اجتماع بالمجلس الأعلى للاقتصاد الوطني.

---

(١) أحد أبطال رواية آنا كارينينا.

(٢) مزارع كبيرة مملوكة للدولة إبان فترة الاتحاد السوفيتي.

يجلس في المنزل مساءً في ضوء الأباجورة الخضراء كالنخلة. أمامه أوراق ودفاتر وكتيبات صغيرة تتضمن أعمدة مليئة بالأرقام. يُقلِّب صفحات التقويم الموضوع على المكتب، ويهب من مكانه ويبحث في خزانة الكتب ويُخرج بعض الرزم، ثم يسند وجهه السمين بيديه، وبطنه إلى الطاولة ويقرأ. سطح الطاولة الأخضر مغطى بلوح زجاجي. ما المميز إذن في كل ذلك؟ إنسان يعمل، إنسان بالمنزل، وفي المساء يعمل. إنسان يمعن النظر في الأوراق ثم يفرك أذنه بقلم رصاص. لا شيء مميز في ذلك. لكن سلوكه بأكمله يقول: «أنت إنسان محدود الثقافة يا كافاليروف». إنه لا يقول ذلك صراحة بالطبع، ولا بد أنه ليس هناك ما يشبه ذلك في أفكاره، لكن الأمر واضح دون أن يقول كلمة واحدة. شخص ثالث يجبرني على ذلك. شخص ثالث يجبرني على الاشتياط غضبًا عندما أراقبه.

يصيح: «ربع روبل... ربع روبل!» ثم يقهقه فجأة. قرأ أمرًا قتله من الضحك في الأوراق أمامه أو ربما رأى شيئًا في عمود الأرقام. يشير لي بينما يكاد يختنق من الضحك. ينخر بينما يشير بإصبعه إلى الورق. أنظر إلى الورق ولا ألحظ شيئًا. ما الذي

يضحكه إلى هذه الدرجة؟ إنه يرى شيئًا واضحًا جدًا يكاد يقتله ضحكًا، بينما لا أستطيع ملاحظة أي شيء على الإطلاق. أنتبه إليه بهلع. هذه ضحكة كاهن متعصب. أستمع إليه كما يستمع الأعمى إلى انفجار قذيفة.

- أنت إنسان محدود الثقافة يا كافاليروف. أنت لا تفهم شيئًا.

لا يقول هذا، لكنه واضح لي دون أن يقول كلمة واحدة.

أحيانًا لا يعود إلى المنزل حتى ساعة متأخرة. حينها تأتيني توجيهاته تليفونيًا:

- أهذا أنت يا كافاليروف؟ اسمع يا كافاليروف: سيتصلون بي من المخبز. دعهم يتصلون بي على رقم ٢٧٣٠٥ على خط داخلي رقم ٦٢. دوِّن هذا. تحقق من ذلك ثانية: ٦٢، لجنة الامتيازات الرئيسة[1]. سلام!

وقد اتصلوا به فعلا من المخبز. أعدت سؤالهم:

- المخبز؟ الرفيق بابيتشيف موجود الآن بلجنة

(١) لجنة بمجلس مفوضي الشعب السوفييتي.

الامتيازات الرئيسة... اتصلوا به هناك على رقم ٢٧٣٠٥ على خط داخلي رقم ٦٢ بلجنة الامتيازات الرئيسة. سلام!

المخبز يتصل برئيس الاتحاد بابيتشيف. بابيتشيف بلجنة الامتيازات الرئيسة. ما شأني أنا بذلك؟ لكني أشعر بالسرور إزاء مشاركتي بالنيابة في تحديد مصير المخبز وبابيتشيف. أشعر بفرحة إدارية. لكن دوري تافه، إنه دور خادم. وماذا إذن؟ هل أحترمه؟ هل أخشاه؟ أرى أني لست أسوأ منه. لست محدود الثقافة. سأثبت ذلك.

أريد أن أمسك به يفعل شيئًا ما؛ أن أكشف عن جانبه الضعيف، نقطته غير المحمية. عندما تصادف أن رأيته للمرة الأولى أثناء اغتساله الصباحي، أيقنت أني أمسكت به واستطعت اختراق جداره المنيع.

خرج من غرفه بينما يجفف نفسه، متوجهًا إلى عتبة الشرفة، وأثناء تجفيفه لأذنيه بالمنشفة أدار لي ظهره. رأيت هذا الظهر؛ رأيت هذا الجسد اللحيم من الخلف في ضوء الشمس، وتمكنت بصعوبة من إمساك نفسي عن الصياح. لقد كشف ظهره عن كل شيء: زيت أصفر رقيق على جسده. انكشفت أمامي لفيفة مصير

آخر. لقد دلل أسلاف بابيتشيف جلودهم، وملأوا أجسادهم بالزيت. انتقلت رقة الجلد واللون الرقيق النقي إلى المفوض بالوراثة. لكن الأمر الذي ملأني حقًا بشعور الانتصار هي تلك الوحمة الخاصة التي رأيتها على حقوه؛ وحمة تشي بأصله النبيل. إنها تلك البقعة المليئة بالدماء الشفافة، تلك العلامة اللطيفة البارزة عن الجسم بروزًا صغيرًا؛ العلامة التي يمكن للأم عن طريقها أن تعرف أطفالها المسروقين حتى بعد مرور عشرات الأعوام.

- أنت نبيل يا أندريه بتروفيتش! إنك تتظاهر.

كاد الكلام أن يخرج من فمي. لكنه استدار وواجهني بصدره.

رأيت ندبة على صدره أسفل الترقوة اليمنى. كانت مستديرة متورمة قليلا كأثر عملة معدنية على شمع. كما لو أن فرعًا قد نما في هذا الموضع ثم قطعوه. لا بد أن بابيتشيف قد قضى مدة بالأشغال الشاقة. هرب وأطلقوا عليه النار.

سألني ذات مرة دون مناسبة:

- من هي جوكاستا؟[1]

---

(١) في الأساطير اليونانية، جوكاستا كانت ملكة طيبة اليونانية أو ثيفا وزوجة لايوس ومن بعدها زوجة وأم لأوديب من لايوس.

تبدر منه كثيرًا أسئلة مفاجئة تمامًا، خاصة في المساء. إنه مشغول طوال اليوم. لكن عينيه تتفحصان الملصقات على واجهات العرض، ورغم ذلك تلتقط حواف أذنه الكلمات من أحاديث الغرباء. إنه مليء بمادة خام. أنا الوحيد الذي يمكن أن يتحاور معه في أمر لا يتعلق بالعمل. إنه يشعر بضرورة إجراء حوار ما. لكنه يرى أن ليس بالإمكان إجراء حوار جاد معي. يعرف أن الناس ينخرطون في الثرثرة أثناء الراحة، ولذلك يقرر أن يشارك في هذه العادة الإنسانية العامة. حينها يطرح عليَّ تلك الأسئلة التافهة. أجيب عنها. في حضوره أبدو أحمق. يظن أني أحمق. يسألني:

- أتحب الزيتون؟

«نعم أعرف من هي جوكاستا. نعم أحب الزيتون لكني لا أريد أن أجيب عن تلك الأسئلة الحمقاء. أنا لا أعتبر نفسي أغبى منك». كان عليَّ أن أجيبه بتلك الكلمات لكني أفتقر إلى الجرأة اللازمة. إنه يسحقني.

-٤-

أعيش تحت سقف بيته منذ أسبوعين. التقطني منذ أسبوعين سكّيرًا عند عتبة إحدى الحانات ليلا... كانوا قد ألقوا بي خارج الحانة.

اندلع الشجار في الحانة تدريجيًا. في البداية لم يحدث ما ينذر بأن فضيحة سوف تحدث، بل على العكس؛ ما حدث أشار إلى احتمالية نشوب صداقة بين الجالسين إلى طاولتين. السكارى ودودون، حتى أن تلك المجموعة الكبيرة التي جلست امرأة وسطها، عرضت عليَّ الانضمام إليها، وكنت على استعداد لقبول دعوتهم، ولكن تلك المرأة الفاتنة النحيلة، بقميصها الحريري الأزرق غير المحكم من ناحية عظمتي الترقوة، أطلقت مزحة صغيرة عني. استأت، وعدت إلى طاولتي، بعد أن كنت متوجهًا صوبهم، حاملا كأسي كالمصباح.

حينها أمطروني بسخرياتهم. في الحقيقة ربما كنت أبدو مدعاة للسخرية فعلا بمظهري الأشعت هذا. جلجلتْ قهقهة أحدهم بصوت جهير من خلفي. ثم بدأوا يلقون البازلاء عليَّ. استدرت حول طاولتي ووقفت في مواجهتهم. تناثرت الجعة على

الرخام، ولم أستطع تحرير إبهامي العالق بيد الكأس، وانفجرت في سكري في نوبة اعتراف أمامهم، وتدفق اعترافي في تيار مرير يجمع بين إذلال الذات والعجرفة في آن واحد:

- أنتم قطيع من الوحوش... قطيع هائم من المسوخ، اختطفتم هذه الفتاة... (أنصت المحيطون بي إلى هذا الأحمق الأشعث الذي بدأ حديثه بغرابة ولاح صوته وسط صخب المكان العام) أنتم الجالسون إلى اليمين أسفل النخلة الصغيرة مسوخ من الدرجة الأولى حقًا. فلتنهضوا ليراكم الناس... أيها الرفاق، أيها الحشد الكريم، انتبهوا! هدوءًا من فضلكم! أيتها الأوركسترا، فلتعزفي فالسًا! اعزفوا لحن فالس محايد. يبدو وجهكم كعدة الفرس، والتجاعيد تضغط الوجنتين... لا، إنها ليست تجاعيد، بل هو العنان. ذقنكم تبدو كالثور، وأنفكم كسائق عربة مصاب بالجذام، أما بقية الأجزاء فتبدو كشحنة معبأة على العربة. اجلسوا! فلنواصل: الآن دور المسخ رقم ٢: إنسان ذو وجنتين كأنهما ركبتين. جميل جدًا! هل أعجبتكم تلك المسوخ المارة أمامكم أيها المواطنون؟ وماذا عنك؟ كيف

دخلت من هذا الباب؟ ألم تعلق به أذناك؟ أما أنت يا من تمسك بتلك الفتاة المخطوفة، فلتسألها عن رأيها في بثور وجهك. أيها الرفاق (استدرت صوب كافة الجهات) إنهم... هؤلاء الـ... لقد سخروا مني! أنت يا من تضحك هناك، أتعرف كيف سخرتَ مني؟ لقد بدا صوتك كصوت حقنة شرجية فارغة... أما الفتاة فـ:

في البساتين التي زينها الربيع ملك الفصول

لا توجد زهرة واحدة تضاهي جمالك

بعدما بلغتِ من العمر ثمانية عشرة عامًا[1].

أيتها الفتاة: صيحي واطلبي العون وسننقذك. ماذا حدث لهذا العالم؟ يجس جسدك ولا تزالين مترددة؟! أيروقك ذلك؟ (وهنا توقفت قليلا ثم عاودت التحدث بطريقة احتفالية مهيبة) أدعوكِ للجلوس معي هنا. لماذا تسخرين مني؟ أقف أمامك أيتها الفتاة التي لا أعرفها وأرجوكِ قائلا: لا تخسريني! فلتنهضي ببساطة وتفارقيهم

---

(١) من قصيدة للشاعر الفرنسي تيوفيل جوتيه، وترجمها إلى الروسية الشاعر نيكولاي جوميليوف.

وتأتين إليَّ هنا! ماذا تنتظرين منه؟ ماذا تنتظرين منهم جميعًا؟ أتنتظرين الرقة؟ العقل؟ اللطف؟ الإخلاص؟ تعالي إليَّ. مجرد مقارنتي بهم أمر يضحكني. ستنالين معي أكثر مما ستنالين معهم بدرجة لا تضاهى...

تحدثت، شاعرًا بالفزع مما قلته. تذكرت بوضوح شديد تلك الأحلام التي يدرك فيها المرء أنه يحلم، ويفعل ما يشاء، عالمًا أنه سيستيقظ لا محالة. أما هنا فكان من الواضح أن يقظة لن تتبع ذلك. تعقد الأمر كعقدة لا يمكن حلها. طردوني.

كنت مستلقيًا فاقد الوعي، وعندما استيقظت قلت:

- أدعوهم ولا يلبون ندائي. أدعوا هؤلاء الرعاع ولا يلبون ندائي! (كلماتي هنا موجهة للنساء جميعًا)

كنت مستلقيًا فوق فتحة صرف، ووجهي مستند إلى قضبانها. تناهت إلى أنفي من تلك الفتحة رائحة عفونة؛ رائحة تدير الرأس. تحرك شيء ما داخل ظلام هذه الفتحة، شيء حي. أثناء سقوطي لمحت فتحة الصرف السالفة للحظة، وتحكمتْ تلك الذكرى في حلمي الذي راودني أثناء فقداني لوعيي. كان الحلم بمثابة تكثيف للقلق والخوف والإذلال والخوف من العقاب

اللذين اختبرتهم بالحانة. تجسد ذلك بالحلم في صورة مطاردة. ركضت هاربًا بكل قوتي.

فتحت عيني، مرتعشًا من فرط فرحتي بالخلاص. لكن يقظتي لم تكن قد اكتملت، حتى إني تعاملت معها بوصفها انتقال من حلم لآخر، ولعب المُخلِّص الدور الرئيس في حلمي الجديد؛ ذاك من أنقذني من المطاردة؛ ذاك من أمطرت يديه وأكمامه بالقبلات، ظانًا أن كل هذا يحدث في الحلم، وقد أحطت عنقه بذراعي مستندًا إليه، منخرطًا في البكاء بمرارة. تمتمت قائلا:

- لماذا أنا تعيس هكذا؟ كم يشق عليَّ العيش في هذا العالم!

قال مخلصي:

- ارفع رأسه.

أخذوني في سيارة. عندما أفقت لنفسي رأيت السماء؛ سماء شاحبة تصبح براقة، وقد اندفع منظر السماء من قبالة كعبي إلى خلف رأسي. هدر الحلم وأصابني بالدوار، وكان ينتهي في كل مرة بشعور قاتل بالغثيان. عندما استيقظت صباحًا مددت يدي بخوف صوب قدميَّ. لم أكن قد تبينت بعد ماذا حدث معي،

ولـم أتذكر سـوى دفعـات وارتجاجات. صعقتني فكـرة أنهم أتوا بي في عربة إسـعاف، وأنهم بـتروا قدميَّ أثناء نومـي. مددت يدي متيقنًا أني سـأجد ضمادة مستديرة سـميكة كالبرميل. ولكن تبين أني مسـتلق ببسـاطة على أريكـة في غرفـة كبيـرة نظيفـة مضيئـة بها شـرفة ونافذتـان. كان الصبـاح في أولـه، ولاح لـون حجـر الشـرفة ورديًا، وانبعث منه الدفـء في سلام.

عندما تعارفنا في الصباح حكيت له عن نفسي. قال:

- كنتَ في حالـة بائسـة، وشـعرت حقًـا بالأسـف الشـديد عليك. ربما تكون قد استأت وقلت في نفسـك: إنسـان يتدخـل في حيـاة شـخص غريـب. إن كان الأمـر كذلـك فلتعـذرني رجـاءً. ولكـن إن شـئت بإمكانـك أن تعيش هنـا الآن علـى راحتـك. سـأسـعد بوجـودك. المـكان هنا شـاغر، تتوفـر فيـه إضـاءة وتهويـة جيدتـان. ثمـة عمليـن أيضًـا لـك: تصحيـح بروفـات طباعـة وفحـص عينـات بعض المـواد. أتريد ذلك؟

ما الأسـباب التي دفعت شـخصية شـهيرة إلى التنازل إلى هذا الحد مع شاب مجهول ذي هيئة مشبوهة؟

-٥-

في أمسية واحدة انكشف لي سران.

سألت:

- من صاحب هذه الصورة الموجودة داخل الإطار يا أندريه بتروفيتش؟

على الطاولة ثمة صورة لشاب حاد الملامح.

- ما هذا؟

يعيد السؤال دائمًا. أفكاره مركزة تمامًا على الورقة أمامه، وليس بإمكانه أن يفيق منها فورًا. قال وذهنه لا يزال غائبًا عن السؤال:

- ماذا؟

- من هذا الشاب؟

- آآه... إنه شخص يُدعى فولوديا ماكاروف. إنه شاب رائع حقًا.

لا يتحدث معي أبدًا بطريقة طبيعية. كما لو أن ليس بإمكاني أن أسأله عن أمر جاد أبدًا. يبدو لي أني أنال دائمًا في أجوبته حكمة

ما أو بيت شعري، أو ربما ببساطة أي هراء. بدلا من أن يجيب إجابة طبيعية، أجد تلك النغمة: شاب رائع، بل إنه يكاد يغنيها: شاااااب. أسأله انتقامًا من ذلك بلهجة تشي بالحنق:

- ما الرائع فيه تحديدًا؟

لكنه لا يلاحظ أي حنق في لهجتي، ويقول:

- لا شيء على وجه التحديد. إنه ببساطة طالب شاب. أنت تنام على أريكته. كل ما في الأمر أني أعتبره ابنًا لي. عاش معي على مدار عشرة أعوام. إنه فولوديا ماكاروف. لقد فارق المكان هنا. ذهب لأبيه في مدينة ميورم.

- هكذا هو الأمر إذن.

- هكذا هو الأمر.

نهض من جلسته إلى الطاولة وابتعد قليلا.

- يبلغ عمره ثمانية عشرة عامًا. إنه لاعب كرة قدم شهير.

قلت في نفسي: «آآه... لاعب كرة»

- حسنًا... في الحقيقة هذا أمر رائع؛ أقصد أن تكون

لاعب كرة قدم شهير. في الحقيقة إنها ميزة كبيرة أن تكون لاعب كرة قدم.

لم يسمعني. إنه غارق في نعيم أفكاره! ينظر من عتبة الشرفة إلى نقطة بعيدة؛ إلى السماء. يفكر في فولوديا ماكاروف. فجأة التفت صوبي قائلا:

- هذا الشاب متفرد تمامًا. (يمكنني أن أدرك استياءه من حقيقة وجودي هنا أثناء تفكيره في هذا المدعو فولوديا ماكاروف) أنا مدين له بحياتي لعدة أسباب؛ أولا: لقد أنقذني منذ عشرة أعوام مضت من عقوبة رهيبة. كانوا سيضعون مؤخرة رأسي فوق سندان الحداد ويضربون وجهي بالمطرقة. لقد أنقذني. (يروق له التحدث عن هذه المأثرة. من الواضح أنه يتذكرها كثيرًا) ولكن ليس هذا هو المهم. أمر آخر هو المهم؛ إنه نوع جديد تمامًا من البشر. حسنًا... (ثم عاد ليجلس إلى الطاولة)

- لماذا انتشلتني وجئت بي إلى هنا؟

- ماذا؟ (إنه يتمتم، ولن يستطيع سماع سؤالي حقًا إلا بعد وهلة) لماذا جئت بك إلى هنا؟ لقد كنت في حالة

بائسة. كان من المستحيل أن أتركك وأرحل. كنت تنتحب، وشعرت بأسف شديد عليك.

- والأريكة؟

- أي أريكة؟

- أقصد عندما يعود فتاك...

أجاب ببساطة وسرور دون أي تردد:

- سيكون عليك وقتها أن تتركها.

عليَّ أن أنهض وألكم وجهه. أترون ما يفعله؟ شخصية لامعة أشفقت على شاب بائس حادَ عن الطريق. لكن هذا أمر مؤقت. ستنتهي شفقته بعودة الشخصية الرئيسة. الدافع ببساطة أنه يشعر بالملل وقت المساء، ثم سيطردني. يتحدث عن ذلك بسخرية.

- أندريه بيتروفيتش، أتدرك ماذا قلت؟ أنت وغد!

- ماذا؟

أفكاره لا تزال مركزة على الورقة. ستكرر له أذناه الآن ما سمعتاه، وأتوسل إلى القدر الآن أن تخونه أذناه. هل سمع حقًا؟ حسنًا، فليسمع ولو لمرة واحدة.

وهنا يعترض الأمر حدث خارجي. لم يُقدَّر لي بعد أن أُطرد من هذا المنزل. أحدهم يصيح أسفل الشرفة:

- أندريه!

يلتفت.

- أندريه!

ينهض فجأة مُبعدًا الطاولة عنه.

- أندريوشا[1]! يا عزيزي!

يخرج إلى الشرفة. أقترب من النافذة. ينظر كلانا إلى الشارع. ظلام. يمتد الضوء من النوافذ إلى الرصيف وحسب. في المنتصف يقف رجل قصير القامة عريض المنكبين.

- مساء الخير يا أندريوشا. كيف حالك؟ كيف حال الـ «ربع روبل»؟

(أرى الشرفة من النافذة، كما أرى جسد أندريوشا الضخم. بإمكاني سماع نخيره).

يواصل شخص في الشارع صياحه، ولكن على نحو أهدأ بعض الشيء:

---

(١) تدليل أندريه.

- لماذا أنت صامت؟ جئت لأبلغك بعض الأخبار. لقد ابتكرت آلة. إنها تُدعى «أوفيليا».

التفت بابيتشيف سريعًا. يتعامد ظله على الشارع ويكاد ينتج عاصفة في أوراق أشجار الحديقة المقابلة. يجلس إلى الطاولة. يدق بأصابعه على لوحها. يسمع صيحة قائلة:

- احذر يا أندريه! لا توهم نفسك. سوف أحطمك يا أندريه.

حينها يثب بابيتشيف من مكانه مجددًا ويهرع إلى الشرفة بقبضتين محكمتين. الأشجار هائجة فعلا، ويهبط ظلُّه سريعًا درجات السلم صوب المدينة كبوذا صائحًا:

- أتعلم من تنازع أيها الوغد؟

يهتز الدرابزون إثر ضربات قبضته.

- أتعلم من تنازع أيها الوغد؟ انصرف من هنا فورًا. سآمرهم بالقبض عليك.

يرن الصوت من أسفل قائلا:

- إلى اللقاء!

يخلع الرجل اللحيم غطاء رأسه، ويمد ذراعه ملوحًا بالقبعة (أهي قبعة؟ هل تبدو كذلك؟) بلباقة مفتعلة. لم يعد أندريه بالشرفة، بينما ينثر الرجل خطواته سريعًا مبتعدًا عن منتصف الشارع. يصيح فيَّ بابيتشيف:

- انظر... انظر إلى أخي إيفان! يا لهم من رعاع!

يذهب إلى غرفته يكاد يغلي من الغضب، ثم يصيح فيَّ مجددًا:

- من هو إيفان؟ من هو؟ شخص متسكع مؤذي مفسِد. عليهم أن يطلقوا النار عليه!

ترتسم ابتسامة على وجه الشاب حاد الملامح بالإطار. ملامح وجهه سوقية. يكشف وجهه على الأخص عن أسنانه اللامعة؛ قفص كامل لامع من الأسنان كما لو أنه وجه لياباني.

-٦-

حلَّ المساء. إنه يعمل. أجلس على الأريكة. مصباح بيننا. يبدو لي أن ضوء المصباح يطمس الجزء العلوي من وجهه؛ إنه غائب. نصف كرة رأسه مدلاة أسفل المصباح. تشبه في مجملها حصالة خزفية مزخرفة. أقول:

- تقترن فترة شبابي بشباب هذا القرن.

لا يسمعني. أستاء من لا مبالاته بي.

- أفكر كثيرًا في هذا القرن. إن قرننا لامع، وإنه مصير رائع حقًا، أليس كذلك؟ أقصد عندما يقترن شباب قرن بشباب إنسان.

يستجيب سمعه إلى إيقاع الألفاظ أثناء الحديث. أمر يدعو للسخرية بالنسبة لإنسان جاد. يكرر:

- قرن... إنسان! (ولكن حاول أن تخبره أنه سمع وكرر لتوه كلمتين، ولن يصدق)

- يجد الموهوب في أوروبا فرصة كبيرة أمامه لتحقيق المجد. هناك يحبون أن يحقق الآخر المجد. افعل هناك عملا عظيمًا واحدًا وستجدهم يمسكون بك ويقودونك إلى طريق المجد... أما هنا فليس ثمة طريق أمام الفرد لتحقيق النجاح، أليس كذلك؟

كما لو أني كنت أحدِّث نفسي! أردد الكلمات وأتلفظها، ويعود صداها. لا ينزعج حتى من حديثي.

- الطريق إلى المجد في بلادنا مليء بالعوائق... لا يجد

الموهوب أمامه سوى اختيارين: إما أن يبهت أو يقرر إزالة العوائق من طريقه بفضيحة كبيرة. أنا مثلا أريد أن أجادل. أريد أن أكشف عن قوة شخصيتي. أريد تحقيق مجدي الخاص. يخافون هنا أن يولوا إنسانًا انتباههم، وأنا أريد مزيدًا من الانتباه. وددت لو كنت قد وُلِدتُ في مدينة فرنسية صغيرة، وترعرعت مستغرقًا في أحلام اليقظة، واضعًا نصب عيني أي هدف سام، ثم رحلت في يوم رائع من تلك المدينة، سيرًا على الأقدام، وصولا إلى العاصمة، وعملت هناك بحماسة شديدة لتحقيق هدفي. لكني لم أولد في الغرب. يقولون لي الآن: «الأمر لا يتعلق بك شخصيًا، فحتى أروع شخصية ممكنة لا تساوي هنا شيئًا»، وأبدأ تدريجيًا في التعود على هذه الحقيقة التي يمكن الجدال ضدها. إني حتى أفكر هكذا: ولكن بإمكانك أن تحقق الشهرة كموسيقي أو كاتب أو قائد عسكري وتعبر شلالات نياجرا معلقًا على حبل... كلها وسائل شرعية لتحقيق المجد، وهنا يحاول الشخص أن يكشف عن نفسه. ولكن تصور كيف يكون الأمر عندما لا يتحدثون هنا عن شيء

سوى التصميم والمنفعة، عندما يُطلب من المرء أن يكون متزنًا وواقعيًا في تعامله مع الأشياء والأحداث، وفجأة، وبهدف القيام بشيء واضح الحماقة، يرتكب فعلا عبقريًا في آذاه، ويقول بعدها: «هذا هو الفارق بيني وبينك». تود أن تخرج إلى ميدان وعام وتفعل ما تشاء بنفسك وتصيح: «لقد عشت وفعلت ما أريد».

لا يسمع شيئًا.

- آه لو كان بإمكان المرء أن يفعل الآتي: يُنهي حياته؛ انتحار دون أي سبب! أذى ذاتي خالص! وذلك ليكشف عن حق الإنسان في فعل ما يشاء بنفسه. يمكنني حتى أن أفعل ذلك الآن. أشنق نفسي مثلا في الرواق.

- يجدر بك أن تشنق نفسك في رواق المجلس الأعلى لاقتصاد الشعب[1] في ميدان فارفاراسكا الذي أصبح يدعى الآن ميدان نوجينا. ستجد هناك قوسًا ضخمًا. أرأيته؟ سيكون الأمر هناك أكثر فاعلية.

(١) BCHX المؤسسة الحكومية العليا لإدارة اقتصاد روسيا إبان الحقبة السوفيتية.

في الغرفة التي كنت أقطن فيها قبل انتقالي إلى هنا كان ثمة فراش مريع. كنت أخافه خوفي من شبح. كان صلبًا كالبرميل، يجعل العظام تصدر رنينًا. ثمة دثار أزرق عليه، اشتريته من خاركوف من سوق كنيسة البشارة[1] في عام المجاعة. كانت هناك فلاحة تبيع الفطائر، وكانت الفطائر مغطاة بهذا الدثار. كانت باردة، لم تنبعث منها بعد حرارة الحياة، بصعوبة تبقبق تحت الدثار، وبدت حينها كالجراء. في تلك الفترة كنت أعيش على نحو سيئ كالجميع، وقد فاحت من هذه التركيبة رائحة الوفرة والمنزل والدفء، حتى إني اتخذت ذلك هذا اليوم قرارًا حاسمًا: أن أشتري دثارًا لنفسي. تحقق الحلم. كان مساءً رائعًا حين انزلقت أسفل هذا الدثار. امتلأ أسفله بالحرارة، ومرحت وأودى بي الدفء إلى حالة الارتجاف كما لو أني جيلاتيني. كان نومًا فاتنًا. لكن الوقت مر وانتفختْ زخارف الدثار وتحولت إلى ما يشبه الكعك.

أنام الآن على أريكة رائعة.

أتعمد تحريكها، فتعلو أصوات نوابضها الجديدة المحكمة

---

(١) سوق بمنطقة أهم معلم فيها كنيسة البشارة. تحول اسمه إبان الحقبة السوفيتية إلى السوق الشيوعي. الآن يُدعى: السوق المركزي.

التي تستخدم لأول مرة. تُصدر حركة النوابض أصوات رنين صغيرة. أتصور فقاعات هوائية متلهفة للظهور فوق سطح الماء. أنام كالطفل. أحلق إلى طفولتي كاملا فوق هذه الأريكة، وأشعر بالسعادة. أرتب كالطفل تلك الفواصل الزمنية القصيرة التي تفصل أول شعور بثقل الجفون عن النوم الحقيقي. يمكنني أن أمد هذه الفواصل الزمنية من جديد، وأستمتع بها، وأملؤها بما يسرني من أفكار دون أن أكون قد انجرفت في النوم تمامًا بعد، مستفيدًا من سيطرة وعيي كيقظ، ويمكنني أن أرى كيف تكتسي الأفكار بهيئة الحلم، وكيف تصبح أصوات الفقاعات الآتية من الأعماق بمثابة قطرات متدحرجة، وكيف تظهر كروم ممتلئة مسيجة كاملا، تتشابك عناقيدها بكثافة، وكيف يتوقد الطريق بين الكروم بأشعة الشمس...

عمري ٢٧ عامًا.

بينما كنت أغير قميصي ذات مرة، رأيت نفسي فجأة في المرآة، وشعرت كما لو أني وجدت شبهًا مدهشًا بيني وبين أبي. في الحقيقة ليس هناك تشابه بيننا. تذكرت: غرفة نوم والديَّ، وأنا الصبي أنظر إلى أبي أثناء تغييره لقميصه. شعرت حينها بالأسف عليه. لم يعد بمقدروه أن يصبح جميلا وشهيرًا. انتهى أمره

بالفعل، ولم يعد بالإمكان وجود شيء سوى الموجود فعلا. هكذا فكرت حينها، شاعرًا بالأسف عليه، وفي الآن ذاته مفتخرًا في صمت بأفضليتي عليه. الآن أدركت أبي الذي فيَّ. كان الأمر نتاج تشابه الشكلين... لا، بل شيئًا آخر: كنت سأقول تشابهًا جنسيًا؛ كما لو إني وجدت فجأة بذور أبي فيَّ؛ في جوهري. كما لو أن أحدهم قال لي: «أنت الآن مستعد. انتهى أمرك. لن يحدث شيء آخر. فلتنجب ابنًا».

لن أصبح جميلا أو شهيرًا أبدًا. لن أنتقل من مدينة صغيرة إلى العاصمة. لن أصبح قائدًا عسكريًا أو مفوضًا شعبيًا أو عالِمًا أو عدَّاءً أو حتى مغامرًا. حلمت طوال حياتي بقصة حب مدهشة. سوف أعود سريعًا إلى شقتي القديمة؛ إلى غرفتي ذات الفراش المريع. هناك جيرة محزنة: الأرملة بروكوبوفيتش. عمرها ٤٥ عامًا، ويطلقون عليها في الجوار: «أنيتشكا».

تُعد وجبات غداء للحلاقين. أعدَّتْ مطبخًا في الرواق. وضعتْ الموقد داخل تجويف مظلم. تُطعم القطط. تتبع يديها قطط نحيلة هادئة بحركات ديناميكية كهربائية. تلقي إليها بما لديها من فضلات. لذا يزين لعاب القطط اللامع الأرض كاللؤلؤ. انزلقتُ ذات مرة فوجدتني قد دست على شيء صغير صلب

كخشب الكستناء. تتعثر في سيرها بالقطط وأوردة الحيوانات. يبرق سكين في يدها. تقطع الأمعاء بمرفقيها كما تمزق الأميرة خيوط شبكة العنكبوت.

الأرملة بروكوبوفيتش عجوز ممتلئة رخوة. يمكن أن تضغطها كنقانق الكبد. وجدتها صباحًا عند الحوض بالرواق. لم تكن قد ارتدت ثيابها بعد، وابتسمت لي ابتسامة مغوية. كان الطشت موضوعًا فوق مقعد بلا ظهر عند بابها، تعوم فيه بقايا خصلات شعر.

الأرملة بروكوبوفيتش رمز لإذلال فحولتي. يحدث الأمر على النحو الآتي:

- أنا مستعدة. تسللْ إليَّ ليلا. لن أغلق الباب، وسأستقبلك. سنعيش ونستمتع. تخل عن أحلامك بالحب المدهش. انتهى كل شيء. كل ما عليك أن تنظر كيف انتهى بك الأمر يا جاري: أصبحت بدينًا قصيرًا ذا كرش منتفخ، ولكن إلام تحتاج أيضًا؟ أتحتاج إلى ذلك؟ أتحتاج إلى تلك الأيادي الرقيقة المُتخيَّلة؟ أتحتاج وجهًا صغيرًا بيضاويًا؟ انس! أنت في

عمر الوالد بالفعل. أستأتي؟ الفراش لديَّ رائع. ربحه زوجي الراحل في اليانصيب. لدي أيضًا دثار مبطن. سأعتني بك وأشفق عليك... اتفقنا؟

أحيانًا كانت نظرتها تشي بسلوك فاحش. في لقاءها بي كان صوت خفيض معين يصدر أحيانًا من حلقها؛ قطرة صوتية مستديرة تندفع إثر تشنج صادر عن نشوة.

لست في عمر الوالد أيتها الطاهية! لست قرينًا لك يا أفعى!

أنام على أريكة بابيتشيف.

أحلم بفتاة فاتنة تضحك برقة، تتسلل إلى جانبي أسفل الغطاء. أحلامي تتحقق، ولكن كيف... كيف أظهر لها امتناني؟ أشعر بالهلع. لم تحبني امرأة مجانًا. حاولتْ تلك العاهرات أن يسلبن مني بقدر استطاعتهن، فما الذي يمكن لامرأة أن تحتاجه مني؟ يبدو الأمر كما لو أن المرأة في حلمي تخمِّن أفكاري وتقول لي:

- لا تقلق... ربع روبل وحسب.

أذكر منذ أعوام طويلة أني اصطُحِبت - أنا طالب الجيمنازيا[1]

---

(١) نوع من المدارس بروسيا كان الطلبة يدرسون فيه اللاتينية والتاريخ وبعض المواد الأخرى.

- إلى متحف التماثيل الشمعية. كان ثمة تمثال داخل صندوق زجاجي لرجل يرتدي معطفًا طويلا، وجرح بركاني اللون في صدره، يموت بين يدي رجل آخر. وضَّح لي أبي قائلا:

- هذا هو الرئيس الفرنسي كارنو[1] مصاب بفعل أحد الأناركيين[2].

كان الرئيس يحتضر، يتنفس بصعوبة، بعينين غائرتين. كانت حياة الرئيس تمضي ببطء كعقارب الساعة. راقبتُ المنظر كالمسحور. ها قد استلقى رجل رائع، وقد ارتفعت لحيته بداخل صندوق أخضر. بدا المنظر رائعًا. حينها سمعت للمرة الأولى طنين الزمن. عبرتْ بي السنون سريعًا. ابتلعت دموعًا جذلة. قرَّرت أن أصبح شهيرًا لكي يُوضع ذات يوم تمثالي

---

(١) ماري فرانسوا سعدي كارنو - سياسي فرنسي، هو ابن السياسي إيبوليت كارنو، وحفيد العالم والسياسي والقائد الثوري لازار كارنو، وابن شقيق الفيزيائي سعدي كارنو، أحد مؤسسي علم الديناميكا الحرارية. في سنة ١٨٨٧ صار كارنو الرئيس الرابع للجمهورية الفرنسية الثالثة، وظل في منصبه حتى اغتياله عام ١٨٩٤م.

(٢) الأناركية: هي فلسفة سياسية أفكرتها ان الدولة غير مرغوب فيها وايضًا غير مهمة وهي مضرّة للمجتمع ومن جهة أخرى تروّج لمجتمع بلا دولة، وتسعى لتحجيم أو إلغاء تدخل السلطة فى سلوك العلاقات الانسانية.

الشمعي المعبأ بطنين الزمن، الذي لم يُعط للكثيرين أن يسمعوه، في صندوق أخضر أنيق كهذا.

أكتب الآن لأسدد احتياجات الفنانين؛ أكتب مونولوجات وأبيات شعرية عن محصلي الضرائب ورجال الـ (نيب)[1] ونفقات المطلقات. أكتب مثلا:

«هرج ومرج في المكتب، وقد اختلط كل شيء، حتى إنهم قدموا طبلا لتنقر عليه ليزورتشكا كابلان بدلا من الآلة الكاتبة»...

ربما ذات يوم سينتصب تمثال شمعي عظيم لجسد إنسان غريب لحيم ذي وجه طيب شاحب، بشعر أشعث، ذي هيئة صبيانية في بدانته، يرتدي معطفًا لم يتبق من أزرته سوى زر واحد عند معدته، ويُكتب عند قاعدة الصندوق: «نيكولاي كافاليروف» وحسب. هذا كل شيء. كل من يراه سيقول: «آآه!» ويتذكر بعض القصص عنه، وقد تتحول إلى أساطير: «آآه، إنه ذاك من عاش في تلك الفترة الشهيرة، كره الجميع وحسدهم،

(١) ن - ي - ب. اختصار للسياسة الاقتصادية الجديدة التي تبناها الحزب الشيوعي السوفيتي منذ عام 1921، وهي تمثل بعض التراجع عن قيود الاشتراكية حيث استفاد منها بعض الشباب في إقامة بعض أنواع التجارة الخاصة.

واختـال وتباهـى بنفسـه، عذبـه هوسـه بخطـط عظيمـة، وأراد أن يفعل المزيد ولم يفعل شيئًا، وانتهى أمره بارتكاب جريمة مقززة شنيعة...»

-٧-

حِدت عن شارع تفيرسكايا إلى أحد الأزقة. كان عليَّ التوجه إلى نيكيتسكايا. كان الوقت صباحًا باكرًا. الزقاق مكون من عدة وصلات. أتحرك من وصلة لوصلة متألما من آلام الروماتيزم. الأشياء لا تحبني. يؤلمني الزقاق بشدة.

سار أمامي شخص صغير الحجم، يرتدي قبعة.

في البداية فكرت في نفسي قائلا: «إنه يسرع الخطو» لكن تبين سريعًا أن السير السريع مقترنًا بالقفز هو أمر يتسم به الإنسان بشكل عام.

كان يحمل وسادة يمسكها من طرفها، وكانت ذا غطاء أصفر. كانت تصطدم بركبته، ولذلك تظهر فيها فجوات إثر الاصطدام ثم تتلاشى.

يبدو أنهم سوف يُشيِّدون سياجًا شاعريًا مليئًا بالزهور في مكان من المدينة. كنا نسير بامتداد هذا السياج.

لمع طائر على أحد الأغصان، وانتفض وارتعش، وبدا بطريقة ما كماكينة حلاقة الشعر. ألقى السائر أمامي نظرة على الطائر. لم أستطع - أنا السائر خلفَه - أن أرى سوى طرف وجهه الهلالي. كان مبتسمًا. كدت أن أصيح قائلا: «أصحيح هذا الشبه؟» واثقًا من أن فكرة التشابه السالفة خطرت على ذهنه هو أيضًا.

القبعة!

يخلعها ويحملها كما يحمل كعكة عيد الفصح، يده من حولها. الوسادة في اليد الأخرى.

النوافذ مفتوحة. في إحدى نوافذ الطابق الثاني تلوح مزهرية زرقاء صغيرة مليئة بالزهور. تستثير انتباهه. يفارق مسار المشاة ويسير في منتصف الرصيف ويتوقف أسفل النافذة ويرفع رأسه. ترتفع قبعته على قذاله. يمسك الوسادة بقوة. امتلأت ركبته بالفعل بالزغب.

أراقب ما يحدث من خلف إحدى النتوءات.

ينادي صوب المزهرية: فاليا!

سرعان ما تظهر فتاة ترتدي رداءً ورديًا، وتنقلب المزهرية إثر ظهورها العاصف.

- فاليا... جئت إليكِ.

يسود الصمت وتسيل مياه المزهرية من فوق الإفريز.

- انظري إلى ما جلبته لكِ، أترين؟ (يرفع الوسادة بيديه أمام بطنه) أتعرفينها؟ لقد نمتِ عليها. (يضحك) عودي إليَّ يا فاليا. ألا تريدين؟ سأريكِ «أوفيليا». ألا تريدين رؤيتها؟

ساد الصمت مجددًا. استندت الفتاة إلى حافة النافذة، وجهها إلى أسفل، وبدت الرأس الشعثاء متدلية، بينما تتدحرج المزهرية بجانبها. أذكر أن بعد وهلة قصيرة من ظهور فتاته التي لم تكن تراه تقريبًا، تهاوى المرفقان على عتبة النافذة.

كانت السحب تمر بالسماء وتبعثرت مساراتها عبر الألواح الزجاجية وعليها.

- عودي إليَّ يا فاليا أرجوكي. يمكنك ببساطة أن تهربي عبر السلم.

انتظرَ.

توقف مراقبو المشهد.

- ألا تريدين؟ حسنًا، إلى اللقاء.

استدار وعدَّل قبعته وسار وسط الزقاق في نفس اتجاهي.

- انتظر! انتظر! بابا! بابا! بابا!

أسرع في خطوه، وركض. عَبَرَ بجواري. رأيته: ليس شابًا. شحب وجهه وشعر بالاختناق من الركض. إنسان مثير للسخرية سمين، كان يركض، حاملا الوسادة، ضاغطًا إياها إلى صدره، ولكن لم يكن هناك ما يشي بالجنون في المشهد.

لم يعد أحد واقفًا عند النافذة.

اندفعت الفتاة لتلحق به. ركضت إلى الزاوية، وهناك لم يعد الزقاق فارغًا. لم تجده. كنت واقفًا عند السياج. عادت الفتاة. خطوتُ صوبها. ظنت أن بإمكاني مساعدتها؛ ظننْتُ أني أعرف شيئًا وتوقفتْ. انسلت دمعة على وجنتها، كالماء من المزهرية. انشرحت أساريرها، مبدية استعدادًا حارًا لتسألني عن شيء ما، لكني سبقتها بقولي:

- ضجيجك بالقرب مني كحفيف فرع مليء بالزهور والأوراق.

في المساء صحَّحت بروفة طباعة: «... وهكذا يمكن إعادة

استغلال الدماء السائلة أثناء عمليات الذبح إما في الطعام أو إعداد النقانق أو إعداد زلال فاتح وداكن، وتصنيع الغراء والأزرة والطلاء والأسمدة وعلف الماشية والطيور والأسماك. أما بالنسبة إلى شحوم كافة أنواع الماشية والنفايات العضوية التي تحتوي على دهون، يمكن استخدامها في إنتاج كافة أنواع الدهون الغذائية مثل: شحم الخنزير - المرغرين (سمن صناعي) - السمن المُصنَّع والزيوت المستخدمة في التصنيع: الاستيارين - الجليسرين - زيوت التشحيم. بالنسبة لرؤوس وحوافر الأغنام، يمكن بفضل الثقابات اللولبية وماكينات التنظيف الأوتوماتيكية والمخارط العاملة بالغاز وآلات القطع وأحواض السفع، أن يُعاد تصنيعها لتصبح منتجات غذائية وزيوت عظم تستخدم في الصناعة، بينما يمكن استخدام الشعر والعظام في أغراض مختلفة...»

يتحدث في الهاتف. يتصلون به قرابة عشر مرات مساءً. لم يكنِ عدد محدثيه قليلا، ولكن فجأة يتناهى إلى آذاني:

- هذه ليست قسوة.

أنصت السمع.

- هـذه ليسـت قسـوة. تسـألينني وأنـا أجيبـك. لا، لا! يمكنك أن تهدأي تمامًا. أتسمعينني؟ يذل نفسه؟ ماذا؟ يسير أسفل النوافذ؟ لا تصدقيه. إنها مكائده. إنه يسير أسفل نوافذي أنا أيضًا. يروق له السير أسفل النوافذ. أنـا أعرفه. مـاذا؟ بكيـتِ؟ ظللت تبكين طوال المسـاء؟ عبثًا بكيتِ طوال المسـاء. هل جن؟ سـوف نرسـله إلى كاناتشيكوفا. أوفيليا؟ أي أوفيليـا؟ اللعنة! هذا هذيان. كما تريدين. لكني أقول: أنت تسـلكين بشكل صحيح. نعـم، نعـم. ماذا؟ وسـادة؟ حقًـا؟ (يقهقـه) أتخيل ذلك. كيـف؟ كيـف؟ التي نمتِ عليها؟ فكري في الأمر. ماذا؟ لكل وسادة قصتها. قصارى القول: تجاهلي شكوكك. مـاذا؟ نعـم، نعم. (هنـا صمتَ واسـتمع طويلا. كنت في قمة التوتر. انفجر ضحكًا) فرع؟ كيف؟ أي فرع؟ مليء بالزهور والأوراق؟ ماذا؟ من المؤكد أنه أحد السكاري وقد فارق صحبته.

تخيلوا نقانق عادية مطهية كالتي يقدمونها في المطاعم: سميكة، لها نفس الحجم والاستدارة والشكل. يتدلى حبل كالذيل من طرفها الأعمى حيث قطعة الجلد الذابلة. نقانق كأي نقانق أخرى. ربما يزيد وزنها عن واحد كيلو جرام بقليل. السطح العرِق والفقاعات الصفراء للدهن الكائن تحت الجلد. بقع بيضاء عند مكان القطع.

أمسك بابيتشيف بالنقانق في راحة يده. كان يتحدث. انفتح الباب. دخل أناس. تزاحموا. تدلت النقانق من راحة يد بابيتشيف الوردية الكريمة وبدت كشيء حي[١]. سأل الحضور متوجهًا إليهم:

- أهذا عظيم؟ لا، كما ترون. من المؤسف أن شابيرو ليس هنا. علينا أن نتصل به. آه... آه عظيم! هل اتصلتم بشابيرو؟ الخط مشغول؟ عاودا المحاولة.

اِلنقانق على الطاولة. يُعدِّل بابيتشيف البطانة برقة. تراجع دون أن يرفع عينيه عنها، وجلس على مقعد استند إلى ظهره،

(١) التناقض بين: (شيء - حي) موجود هكذا في النص الأصلي.

واضعًا قبضتيه على فخذيه، ثم انفجر في الضحك. رفع قبضته ورأى دهنًا ينسل منها. أنهى ضحكه وقال:

- كافاليروف! هل أنت متفرغ الآن؟ اذهب رجاءً إلى شابيرو. في المستودع. أتعرفه؟ اذهب إليه مباشرة وخذ هذا معك (عيناه على النقانق). خذ النقانق واجعله يلقي نظرة عليها واتصل بي.

حملت النقانق إلى شابيرو بالمستودع، في النهاية اتصل بابيتشيف بالجميع. صاح قائلا:

- نعم، نعم، نعم! رائع تمامًا. سنرسله إلى المعرض. سنرسله إلى ميلان. بالضبط. نعم، نعم! ٧٠٪ من لحم العجل. انتصار كبير... ليس بنصف روبل. ماذا تقول؟ نصف روبل! ههههه. بـ: ٣٥ كوبيكًا. ممتاز؟ رائع!

ورحل.

اهتز وجهه الضاحك الذي يشبه وعاءً ورديًا خلف نافذة السيارة. في طريقه دفع البواب بقبعته، وانتفخت عيناه وركض على درجات السلم بضجيج وتهور كالخنزير البري ورن صوته عبر هواتف مكاتب كثيرة قائلا:

- نقانق! هذا بالضبط ما حدثتكم عنه. إنها طرفة!

بينما كنت أتجول في الشوارع الغارقة في ضوء الشمس اتصل بشابيرو من هاتف كل مكتب:

- إنهم آتون به إليك. سليمان[1]، سوف ترى... سوف تنفجر!

- ألم يصلك بعد؟ آآه يا سليمان.

وجفف عنقه المتعرق بمنديل أدخله خلف الياقة عميقًا، حتى كاد يمزقها بوجه متجعد تلوح عليه إمارات المعاناة.

وصلتُ إلى شابيرو. رآني الجميع أحمل النقانق فتنحوا عن الطريق. أصبح الطريق أمامي شاغرًا بطريقة ساحرة. أدرك الجميع أن رسولا آتيًا بنقانق بابيتشيفية[2]. شابيرو يهودي عجوز كئيب بأنف تشبه رقم ٦ إن نظرت إليها من زاوية جانبية. كان واقفًا عند باب المستودع أسفل سقيفة خشبية. كان هناك باب مليئٌ بظلمات الصيف المتحركة، ككافة الأبواب المفتوحة علىَ المستودعات؛ تلك الظلمات الغامضة الرقيقة التي تظهر

(١) الاسم الأول لشابيرو.

(٢) نسبة إلى بابيتشيف.

أمامك إن أغلقت عينك وضغطت بأصابعك على جفنيك. يقود هذا الباب إلى سقيفة ضخمة بالداخل. ثمة هاتف معلق على قبضة الباب بالخارج. بالقرب منه برز مسمار عُلِّقت عليه أوراق صفراء خاصة ببعض المستندات.

أخذ شابيرو النقانق ووزنها وهزّها بيدها وأخذ يهز رأسه، ثم رفعها قبالة أنفه وشمها. بعد ذلك خرج من تحت السقيفة ووضع النقانق في صندوق، أخذ سكينًا وقطع به بعناية شريحة رقيقة من النقانق. مضغ الشريحة وسط صمت تام، ضاغطًا إياها على سطح فمه العلوي، وامتص الطعم وابتلعها ببطء. ارتعشت يده الممسكة بسكين الجيب، وأنصت صاحبها إلى حواسه. تنهد بعد أن ابتلع القطعة قائلا:

- آآه... ممتاز يا بابيتشيف! لقد صنع نقانق. اسمع، لقد نجح فعلا. نقانق بـ: ٣٥ كوبيكًا. أتعلم، هذا أمر لا يصدق.

رن جرس الهاتف. نهض شابيرو ببطء وذهب إليه.

- نعم أيها الرفيق بابيتشيف. أهنِئك وأود أن أقبِّلك.

علت صرخة بابيتشيف من مكان ما بقوة شديدة إلى درجة أني

سـمعت صوته من مكاني هنا البعيد عن الهاتف؛ سـمعت طقطقة وانفجـارات صوتـه عبر السـماعة. كادت السـماعة أن تسـقط من أصابع شابيرو الضعيفة من فرط اهتزازها الشديد. اضطر إلى أن يسـندها بيده الأخرى وعبسـت أسـاريره كأنه يعلن عن غضبه من طفل شقي يحول بينه وبين الاستماع.

سألتُ:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟ هل ستبقى النقانق معك؟

- إنـه يطلـب منـك أن تأخذها إلى منزله. يدعـوني لتناولها معه في المساء.

لم أتحمل الأمر وقلت:

- هل يتوجب عليَّ حقًا أن أحملها إلى المنزل؟ أليس من الممكن شراء غيرها؟

- يسـتحيل شـراء مثل هـذه النقانق. لـم تُعـرض للبيع بعد. إنها عينة مصنع.

- سوف تَفسد.

قـال شـابيرو ببطء أثنـاء طيـه لسـكينه، واضعًـا يده علـى جانبه

باحثًا عن جيبه، مبتسمًا بعض الشيء، خافضًا جفنيه كاليهود الشيوخ، وبلهجة وعظية:

- لقد هنأت الرفيق بابيتشيف على نقانق لن تفسد خلال يوم. إن لم يكن الأمر كذلك لما هنَّأت الرفيق بابيتشيف. سوف نأكلها اليوم. لا تخشَ وضعها في الشمس الحارقة إن شئت، وستطلق عبيرًا كالوردة.

اختفى في ظلام السقيفة ثم عاد مع ورق زبدة للف النقانق، وفي خلال ثواني قليلة كنت أحمل في يدي ربطة ملفوفة ببراعة.

منذ الأيام الأولى لتعارفي ببابيتشيف، استمعت إلى أحاديث تدور عن تلك النقانق الشهيرة. كانت التجارب تُجرى في مكان ما من أجل إنتاج منتج غذائي نظيف ورخيص. كان بابيتشيف يتوجه باستمرار إلى أماكن مختلفة، مُدوِّنًا ملاحظات دقيقة، وكان يسأل ويقدم النصائح. يترك الهاتف أحيانًا قاتم الوجه، وفي أحيان أخرى ببهجة مضطربة. في النهاية خرج المنتج إلى النور. خرجتْ الأمعاء مضغوطة بإحكام من قلب حاضنات غامضات، تتأرجح بأطرافها السميكة الضخمة.

بعد أن تناول بابيتشيف بين يديه قطعة من هذه الأمعاء، احمرَّ

وجهه، بل يمكن القول إنه شعر بالخجل في البداية، كالعريس حينما يرى عروسه الشابة الفاتنة، والانطباع الساحر الذي تركته على الضيوف. نظر إلى الجميع في حالة ارتباك سعيدة، ووضع القطعة وأبعدها عنه براحة يده اللامعة كأنه أراد أن يقول: «لا... لا، لا ضرورة لذلك. سوف أرفض الآن حتى لا أعاني بعد ذلك. لا يمكن أن تتم هذه النجاحات في حياة إنسانية بسيطة. هنا يكمن خداع القدَر. أبعدوها عني. أنا لا أستحق ذلك».

سرت بلا وجهة حاملا كيلو من هذه النقانق المدهشة.

أنا واقف على الجسر.

قصر العمل[١] عن يساري والكرملين من خلفي. ثمة زوارق تسبح فوق سطح النهر، وزورق بخاري ينزلق على الماء مثل طائر محلق. من بقعة شاهقة شاهدت بدلا من الزورق شيئًا يشبه لوزة عملاقة مُقطَّعة طوليًا. توارت اللوزة أسفل الجسر. كل ما أتذكر حينها هو نفير الزورق البخاري وحسب، وأن بالقرب منه كان ثمة شخصان يتناولان حساء البورش[٢] من القِدر.

---

(١) مشروع لم يكتمل. بناية في وسط العاصمة كان من المفترض أن تضم مسرحًا ودار ثقافة ومقرًا لبعض المجالس السوفيتية... إلخ.

(٢) حساء خضروات روسي.

نفثة دخان بيضاء صافية متلاشية تطير صوبي. لا تستطيع إتمام مسارها، وتتحول إلى تشكيلات أخرى ولا تصلني منها سوى بقاياها الأخيرة ملفوفة في شكل طوق نجمي بالكاد تمكن رؤيته.

أردت أن ألقي بالنقانق في النهر.

أندريه بابيتشيف إنسان رائع، عضو جمعية السجناء السياسيين السابقين، مفوض، يَعتبر اليوم يوم عيد. كل هذا بسبب أنهم أروه نوعًا جديدًا من النقانق. أيمكن أن يكون هذا عيدًا؟ أيمكن أن يكون هذا مجدًا؟

لقد توهج اليوم. نعم، ولاح ختم المجد عليه. لماذا لا أشعر بالحب والابتهاج والتوقير في حضرة هذا المجد؟ الضغينة تدمرني. إنه مفوض شيوعي، يشيد عالمًا جديدًا، يضطرم فيه المجد بسبب خروج نوع جديد من النقانق من يد صانع نقانق. أنا لا أفهم هذا المجد، وماذا يعني ذلك؟ ليس هذا هو المجد الذي حدثتني عنه السير الذاتية والتماثيل وذَكَره التاريخ. أيعني ذلك أن طبيعة المجد تغيرت؟ أهكذا هو الأمر في كل مكان أم هنا وحسب، في عالمنا الذي يشيدونه الآن؟ لكنني أشعر أن هذا العالم الجديد الذي يشيدونه الآن سامٍ مجيد... لست أعمى،

كما أن لديَّ رأس فوق كتفيَّ. لست في حاجة لأن يعلمني أحد أو يفسر لي شيئًا... أنا مثقف. أنا أنشد المجد في هذا العالم تحديدًا. أريد أن أتوهج كما توهج بابيتشيف اليوم. لكن نوعًا جديدًا من النقانق لا يدفعني إلى التوهج.

أطوف بالشوارع ممسكًا بربطة النقانق، قطعة حقيرة من النقانق تُوجِّه حركتي وإرادتي. لا أريد ذلك!

كنت على وشك إلقائها أكثر من مرة من نوافذ الجسر. ولكن ما إن كنت أتصور تحرري من هذه الربطة بإلقائها، وسقوط تلك النقانق المنحوسة واختفائها الفاتن بسرعة في المياه كالطوربيد، حتى أرتجف بفعل تصور آخر. تخيلت بابيتشيف يقترب مني؛ ذلك المعبود العاصف الساحق ذو العينين الجاحظتين. أخاف منه. إنه يسحقني. لا ينظر إليَّ ومع ذلك يرى ما بداخلي. لا ينظر إليَّ، كل ما يحدث هو أن أرى عينيه عندما يلتفت وجهه صوب زاويتي، أما نظراته فلا. نظارته وحدها تلمع، دائرتان تتسمان بالِعمى والاستدارة. إنه غير مهتم بالنظر إليَّ، ليس لديه وقت لذلك ولا رغبة، لكنني أدرك أنه ينظر إلى ما بداخلي.

في المساء وصل سليمان شابيرو، ووصل كذلك اثنان، وأعد

بابيتشيف بعض المرطبات. جلب اليهودي العجوز زجاجة فودكا، وشربوا وتناولوا من النقانق الشهيرة. رفضت مشاركتهم، وراقبتهم من الشرفة.

خلَّدت اللوحات الكثير من المآدب. صوَّرت اللوحات مآدب قادة عسكريين وقضاة وكذلك مجموعة من الشرهين. صوَّرت هذه اللوحات عصورًا كاملة. تتحرك ريش الرسم وتتدفق الرسومات على القماش وتُصقل الوجنات.

تيبولو[1] جديد! تعالوا سريعًا إلى هنا! ها هي مناظر مآدب لترسموها. إنهم جالسون في ضوء مصباح قوي إلى الطاولة، يتحدثون بحرارة. ارسمهم يا تيبولو الجديد! ارسم لوحة بعنوان: «وليمة لدى مسئول النشاط الاقتصادي».

بإمكاني رؤية قماش لوحتك في المتحف. أرى زوارًا واقفين أمام لوحتك. يهزون رؤوسهم ولا يعرفون عما يتحدث هذا العملاق السمين الذي يرتدي حمالات زرقاء بكل هذا الإلهام... يُمسك بشوكته قطعة نقانق. كان من المفترض أن تكون القطعة قد اختفت داخل فمه منذ فترة طويلة، لكنها لا تستطيع ذلك لأن

---

(١) جيوفاني باتيستا تيبولو: رسام إيطالي.

المتحدث منجذب بشدة إلى حديثه. عمّ يتحدث؟ قال العملاق ذو الحمالات الزرقاء:

- هنا لا يستطيعون صنع النقانق. أيمكن أن نرضى بهذه النقانق التي لدينا؟ اصمت يا سليمان، أنت يهودي ولا تفهم شيئًا عن النقانق. لا يروق لك سوى ذلك اللحم الهزيل سهل المضغ. ما لدينا ليست نقانق، بل أصابع متصلبة. النقانق الحقيقية لا بد أن تكون رطبة. سترون أني سأنجح في صنع هذه النقانق.

-٩-

اجتمعنا في صالة المطار.

أأقول «اجتمعنا» بصيغة الجمع؟! لقد كنت شخصيةً ثانوية تمامًا في الحدث؛ شخصًا أخذوه بالصدفة. لم يتوجه أحد إليَّ ولم يهتم أحد بانطباعاتي. كان بإمكاني المكوث في المنزل بضمِير صاف.

كان من المفترض أن تقلع طائرة سوفيتية جديدة. دعوا بابيتشيف. تجاوز الضيوف الحاجز. كان بابيتشيف أهم شخصية

في الحضور. عندما ضاقت الدائرة من حوله كان عليه أن يحاور أحدهم. استمع الجميع إليه بانتباه يشي بالتوقير. بدا مختالا في حلته الرمادية البهية، وعلا كتفاه المقوسان فوق أكتافهم جميعًا. كان ثمة منظار أسود معلقٌ على حزام حول بطنه. أثناء استماعه لمرافقه كان يدس يديه في جيبيه ويهز ساقيه المتباعدتين من كعبيه وحتى أصابع قدميه ثم العكس. يحك أنفه كثيرًا. بعد أن يفعل ذلك ينظر إلى أصابعه المطوية داخل قبضته القريبة من عينيه. يكرر المستمعون لا إراديًا حركاته وتعبيرات وجهه كطلبة المدارس، يحكون أنوفهم هم أيضًا، ويتعجبون من أنفسهم.

ابتعدت عنهم بغضب شديد. جلست عند الخوان، يلاطفني نسيم الحقول، وشربت جعة. جذبت كأس الجعة صوبي بينما أراقب كيف يُشكِّل النسيم زخارف رقيقة من نهايات مفرش طاولتي.

احتشدت عجائب عديدة في المطار: هنا في الحقل أينع الأقحوان، وقبالة الحاجز كان ثمة أقحوان عادي من النوع الذي ينفث مسحوقًا أصفر. أما هنا بامتداد الأفق، تمايلت سحب دائرية تشبه دخان المدافع. توهجت الأسهم الخشبية التي تشير إلى اتجاهات مختلفة كأكثر الرصاص حمرة، وتمايل في العلاء

مؤشر اتجاه الرياح الذي يبدو كخرطوم الفيل، في حركة تقلص وتمدد مستمرين. هنا على العشب الأخضر لأرض المعارك القديمة؛ أرض الأيائل والقصص الغرامية، انسلت الطائرات. استمتعت بهذا المذاق؛ استمتعت بهذه المتناقضات والتركيبات المدهشة. أفضت بي حركة مؤشر الرياح الحريري إلى التأمل.

منذ طفولتي واسم ليلينتال[١] المشرق الخفاق كجناحي حشرة طائرة يبدو لي رائعًا. ارتبط الاسم في ذاكرتي ببدء الطيران؛ هذا الاسم الطائر المنبسط كأعواد خيزران. قُتِل الرجل الطائر أوتو ليلينتال، ولم تعد طائراته تبدو لي كالطيور. حلت الزعانف محل الأجنحة الصفراء البراقة. يمكن للمرء أن يتيقن بنفسه من أنها تضرب الأرض عند التحليق. في كل الأحوال تُثار الأتربة عند الإقلاع. الطائرة الآن تشبه سمكة ثقيلة الوزن. يا للسرعة التي تَحوَّل بها الطيران إلى عملية صناعية!

تقدمت المسيرة. وصل ممثل مفوضية الشعب للشئون العسكرية. عَبَرَ ممثل المفوضية الممشى سريعًا، متقدمًا عن

(١) كارك فيلهيلم أوتو ليلينتال وهو واحد من رواد الطيران الذي أصبح يعرف باسم ملك الطائرة الشراعية الألماني. وكان أول شخص استطاع القيام برحلات متكررة ناجحة بطائرة شراعية.

مرافقيه. أثار رياحًا بفعل سرعة وثِقل سيرته الواثقة. تطايرت أوراق الشجر من خلفه. عزفت الأوركسترا عزفًا أنيقًا. خطا ممثل المفوضية بأناقة هو الآخر، متماشيًا مع إيقاع الأوركسترا.

اندفعت صوب البوابة المؤدية إلى الحقل لكنهم منعوني من عبورها. قال أحد العسكريين: «ممنوع!» ووضع يده على حافة البوابة العليا. سألته:

- كيف هذا؟

أدار لي ظهره، وتوجهت عيناه سريعًا صوب الأحداث المهمة الجارية. وقف الطيار المهندس في سترته الجلدية الحمراء أمام ممثل المفوضية. كان ثمة حزام مشدود بإحكام على ظهر المفوض ذي الجسد الممتليء. رفع كل منهما يده إلى قبعته لأداء التحية العسكرية. توقف كل شيء عن الحركة. وحدها الأوركسترا استمرت في عملها. وقف بابيتشيف بكرشه البارز. كرَّرت طلبي ولمست ذراع العسكري قائلا:

- دعني أمر أيها الرفيق.

أجابني:

- سوف أبعدك عن المطار تمامًا.

- لكني كنت هناك بالفعل. فارقت المكان لبرهة قصيرة وحسب. جئت بصحبة بابيتشيف.

توجب أن أريه بطاقة دعوتي، لكن لم تكن لديَّ واحدة. اصطحبني بابيتشيف معه ببساطة دون دعوة. لم يكن شيء بالطبع سيضايقني حتى لو لم أكن قد وجدت هذا الحقل. كما أن هذا الموضع خلف الحاجز كان بقعة ممتازة لمراقبة ما يحدث هناك. لكني أصريت على الدخول. شيء أكثر أهمية من مجرد الرغبة في رؤية كل شيء عن قرب، أجبرني على تسلق الحاجز. فجأة أدركت عدم انتمائي إلى أولئك المدعوين لحدث كبير ومهم، وأدركت لا جدوى حضوري بينهم وعزلتي عن كل شيء مهم فعله أولئك الناس، سواء هنا أو في الحقل أو في أي مكان آخر.

- أيها الرفيق، أنا لست مجرد مواطن عادي. (اهتجت. لم أجد توصيفًا أفضل أصف به حجم الارتباك الحادث في أفكاري) ماذا تظنني؟ أتظنني محدود الثقافة؟ اسمح لي بالدخول من فضلك. أتيت من هناك (أشرت بيدي إلى المجموعة التي التقت بممثل المفوضية)

ابتسم العسكري قائلا:

- لن تذهب إلى هناك.

- اسأل الرفيق بابيتشيف عني.

صِحت مُكبرًا صوتي براحتي يدي، شابًا على أطراف أصابعي:

- أندريه بتروفيتش!

في تلك اللحظة توقفت الأوركسترا عن العزف. فرَّ من تحت الأرض طنين آخر ضربة على الطبل.

- أيها الرفيق بابيتشيف!

سمعني. التفت ممثل المفوضية كذلك. التفت الجميع. رفع الطيار يده صوب خوذته ليحمي نفسه من أشعة الشمس.

تملكني الخوف. دققت الأرض بقدمي في بقعة ما خلف السياج. كيف جرؤت على صرف انتباه شخص بكرش منتفخ يرتدي سروالا قصيرًا؟ عندما ساد الصمت، ولم يكونوا قد تبينوا بعد من الذي ينادي أحدًا منهم، وتجمدوا في وضعيات متوقعة، لم أجد في نفسي قوة لمعاودة النداء مرة أخرى.

لكنه عرف أني أنا من أناديه، ورأى وسمع. مرتْ ثانية وانتهى

كل شيء. عاد الحاضرون لوضعياتهم السابقة. كنت على وشك البكاء.

حينها شببت على أطراف أصابعي مجددًا وصحت صوب تلك البقعة البعيدة صيحة رنانة أصمت آذان العسكري، مكبرًا صوتي عبر راحتي يدي:

- يا صانع النقانق!

ومجددًا:

- يا صانع النقانق!

ومجددًا:

- يا صانع النقانق! يا صانع النقانق! يا صانع النقانق!

لم أكن أرى سواه؛ بابيتشيف، يعلو على الجميع بقبعته. أتذكر رغبتي في إغلاق عيني والجلوس خلف السياج. لا أتذكر ما إن كنت قد أغلقت عيني أم لا، ولكن حتى إن كنت قد أغلقتها، كان لا يزال بمقدوري أن أرى الأمر الرئيس. التفت وجه بابيتشيف صَوبي. ظل ملتفتًا صوبي لجزء من الثانية. لم تظهر عيناه، بل لاحت صفحتا نظارته المعدنيتين اللامعتين كالزئبق. أفضى بي الخوف من عقاب فوري إلى حالة تشبه النوم. راودني حلم،

وبالتالي شعرت أني نائم. أفظع ما كان بالحلم هو أن رأس بابيتشيف استدارت صوبي فوق محورها على جسده الثابت كما لو أنها تدور على برغي، وظلَّ ظهره في الاتجاه المعاكس لي.

-١٠-

تركت أرض المطار.

لكن ضجيج الاحتفال هناك ظل يستهويني. توقفتُ وسط الخضرة، مستندًا إلى شجرة، مغطى بالغبار. أحاطت بي الغصون وبدوت كالقديس. قطعتُ بعض الفروع الحمضية الرقيقة ومضغتها. وقفتُ رافعًا وجهي الشاحب الطيب ناظرًا إلى السماء.

أقلعتْ طائرة من أرض المطار. عبرتْ فوقي بطنين مريع، ولاحت بلونها الأصفر في السماء منحرفة كيافطة، وكادت أن تمزق أوراق شجرتي. علَتْ أكثر فأكثر، وتابعت مراقبتها، متعثرًا في سيري فوق العشب. انعطفتْ في طيرانها، تارة تتوهج وتارة تبدو سوداء. كانت المسافة تتبدل، كما كانت تتخذ أشكالا مختلفة: ترباس بندقية، مطواة، زهرة ليلك وطأتها قدم...

انقضى الاحتفال بطيران طائرة سوفيتية جديدة في غيابي. أُعلِنت الحرب. أسأت لبابيتشيف.

سوف يخرجون الآن من بوابة المطار في جماعات. كان السائقون مستعدين بالفعل. ها هي سيارة بابيتشيف الزرقاء. يراني السائق ألبيرس ويشير لي بالقدوم. أدير ظهري إليه. تعقد حذائي بقطعة عشب خضراء.

يجب أن أتحدث معه. عليه أن يفهم الأمر. يجب أن أوضح له أنه هو المذنب لا أنا، هو تحديدًا! لا يخرج بمفرده. يجب أن أتحدث معه وجهًا لوجه. سوف يذهب من هنا إلى المكتب. سأسبقه إذن إلى هناك.

قالوا لي في المكتب أنه الآن في الموقع.

- الربع روبل؟ إذن فلأذهب إلى الربع روبل.

بلية تدفعني صوبها! كلمة ما كان لا بد أن أقولها له، تكاد تنزلق من بين شفتي، وكنت أحاول اللحاق به، وخشيت ألا أتمكن من ذلك، وأن أفقده وأنسى الأمر.

بدت البناية سرابًا أصفر متدليًا في السماء. ها هي بناية «الربع روبل»! كانت قابعة خلف بعض المنازل، في منطقة بعيدة،

تجمعت فيها أجزاء منفصلة من الغابات في منطقة واحدة، طارت كأخف خلية نحل على امتداد النظر...

اقتربتُ. ضجيج وتراب. صمَّ الضجيج أذني وآلمتني عيناي. سرتُ على الأرضية الخشبية. طار عصفور من جذع شجرة، ومالت الألواح الخشبية قليلا لتستثير ذكريات طفولية عن ركوب الأرجوحة. سرت مبتسمًا من الطريقة التي تجتمع بها النشارة الخشبية، وكيف تكسو الكتفين بلون رمادي.

أين أبحث عنه؟

ثمة شاحنة تسد الطريق. لا منفذ لديه للدخول. يتضمن المكان مرتفعات ومنخفضات، كخنفساء تصعد من مستوى أفقي إلى آخر رأسي.

الطرق متشابكة، كما لو أني أسير داخل أُذن!

- أين الرفيق بابيتشيف؟

أشاروا لي صوب إحدى الجهات. إنهم هناك حيث يجري العمل.

- أين؟

- هناك.

أسير فوق الأرضية الخشبية ومن تحتي هاوية. أوازن نفسي. لا شيء سوى هاوية تتثاءب أسفل قدمي؛ هاوية هائلة سوداء باردة. كل شيء هنا يُذكِّرني بحوض السفن. أزعج الجميع هنا.

- أين؟

- هناك.

إنه مراوغ.

اندفع أمامي فجأة كالبرق؛ مر من فوق لوح خشبي واختفى. ها هو يظهر مجددًا بالأعلى بعيدًا، وثمة فراغ هائل بيننا، سيصبح قريبًا إحدى واجهات البناية.

مكثَ طويلا هناك. لا يزال بصحبته الكثيرون: قبعات ومآزر. الأمر سيان، سأناديه لأقول له كلمة واحدة: «سامحني!».

أشاروا لي إلى أقصر طريق للذهاب إلى هناك. تبقتْ أمامي بضعِة درجات أخيرة. أسمع بالفعل الأصوات هناك. لم تتبق سوى بضعة درجات...

لكن يحدث الآتي: يجب أن أنحني وإلا سيُقضى عليَّ. أنحني

فعلا وأمسك بالدرجات الخشبية. يطير من خلفي... نعم، لقد طار فعلا في الهواء.

رأيته يطير بثبات من منظور صعب. لم أر وجهه، بل منخري أنفه وحسب: رأيت تحديدًا فتحتين من مكاني بالأسفل وللحظة واحدة.

- ماذا كان ذلك؟

ركضت على درجات السلم.

تلاشى... لقد طار؛ طار على كعكة حديدية إلى مكان آخر. رافق طيرانه ظل متشابك. كان واقفًا فوق شيء معدني على شكل نصف دائرة، وتصاعد صوت رنين وعواء. ما هذا؟ ربما جهاز ما تقني أو رافعة. منصة من القضبان مكدسة عرضيًا. رأيت منخريه عبر المساحات المربعة البادية.

جلست على إحدى الدرجات. سألتُ:

- أين هو؟

ابتسم العمال من حولي، وابتسمت لهم جميعًا في كافة الجهات كمهرج أنهى افتتاحيته الأكثر كوميدية على خشبة المسرح. قلت:

- لست أنا المذنب. هو المذنب.

-١١-

قررت ألا أعود إليه.

أصبح سكني السابق مِلكًا لآخر بالفعل. ثمة قفل معلق على الباب. الساكن الجديد غائب. استعدت إلى ذهني وجه الأرملة بروكوبوفيتش الذي يشبه القفل المعلق. هل من المعقول أن يعود ذلك الوجه إلى حياتي مجددًا؟

قضيت الليلة في الجادة. أشرق عليَّ واحد من أكثر الصباحات سطوعًا. بالقرب مني نام بضعة مشردين آخرين على الدكك. كانوا نائمين متلاصقي الأجساد بأيدٍ مضغوطة على البطن، يشبهون صينيين موثقة أيديهم، مقطوعة رؤوسهم. لمستهم أورورا[١] بأصابعها الباردة. تأوهوا وتوجعوا وتمطعوا ثم جلسوا دون أن يفتحوا أعينهم أو يفصلوا أيديهم.

استيقظت الطيور. صدرت أصوات طفيفة: تداخلت أصوات الطيور والعشب، وتصاعد هديل الحمام.

نهضتُ من مكاني مرتعشًا. رجني التثاؤب ككلب.

---

(١) إلهة الفجر في الميثولوجيا الرومانية.

(انفتحت البوابات. امتلأ الكأس باللبن. أصدر القضاة أحكامهم. إنسان ظل يعمل طوال الليل، ثم اقترب من النافذة وتعجب؛ لم يتعرف على الشارع في هذه الإضاءة غير المعتادة. إنسان مريض طلب مشروبًا. صبي هرع إلى المطبخ ليرى ما إن كان الفأر قد علق بالمصيدة أم لا. بدأ الصباح)

كتبت في هذا اليوم خطابًا لأندريه بابيتشيف.

تناولتُ كرات لحم محشية من نوع (نيلسون) في قصر العمل بسوليانكا، وشربت جعة وكتبت:

«أندريه بتروفيتش! لقد آويتني. سمحت لي أن أبقى بجانبك. نمت على أريكتك المدهشة. تعلم كيف عشتُ حياة حقيرة قبل ذلك. حلّت ليلة مباركة. أشفقت عليَّ وانتشلت سكيرًا.

أحطتني بملاءات كتانية. بدا الأمر كأن نعومة وبرودة الكتان تعمدت إطفاء لهيبي وتهدئة اضطرابي.

وصل الأمر إلى ظهور أغطية بطانيات ذات أزرة عاجية اللون، وكل ما على المرء أن يجد فيها النقطة التي تطفو عليها ألوان قوس قزح رقيقة. وجدتها سريعًا. عادت من غياهب النسيان من نقطة بعيدة جدًا في ذاكرتي الطفولية.

أصبح لي فراش.

كانت الكلمة في حد ذاتها بعيدة عني بصورة شاعرية، تماما ككلمة «لعبة الطوق»[1].

مَنَحْتني فراشًا.

من أعلى رخاء أنزلت إليَّ سحابة على شكل فراش، هالة تجلب لي دفئًا ساحرًا، مغلفَّة بالذكريات ولحظات الأسف غير المريرة والآمال. آملت أن تتحقق احتمالية عودة أمور أخرى كثيرة لي كانت خاصة بفترة شبابي.

لقد أنعمت عليَّ بالكثير يا أندريه بتروفيتش!

آآه من مجرد فكرة أن يُقرِّبني إنسان شهير إليه!

عضو بارز أسكنني في منزله. أريد أن أعبِّر لك عن مشاعري؛ خاصة شعور بعينه: الكراهية. إني أكرهك أيها الرفيق بابيتشيف.

أكتب إليك هذا الخطاب لأحطم بعضًا من خيلائك.

بدأت أختبر الخوف منذ أيامي الأولى معك. لقد سحقتني. جلست فوقي.

---

(١) لعبة تعتمد على رمي فرد لطوق يحاول الآخر أن يمسكه بعصا.

تقف بسروالك الداخلي، تنشر رائحة عرقك التي تشبه رائحة الجعة. أنظر إليك، ويبدأ وجهك في التضخم بغرابة. يتضخم جذعك؛ ينتفخ طين تمثال معبود ما. أنا مستعد للصراخ.

من أعطاه الحق ليسحقني؟

في أي مجال أنا أسوأ منه؟

أهو أكثر ذكاءً مني؟

أهو أغنى روحيًا؟

أهو أكثر تنظيمًا؟

أهو أقوى؟ أعظم؟

أهو كذلك ليس من حيث الوضع وحسب، بل في الجوهر أيضًا؟

لماذا أنا مضطر للاعتراف بأفضليته؟

سألت نفسي كل هذه الأسئلة. كانت المراقبة اليومية تمنحني جزءًا من الإجابة. انقضى شهر، ولم أعرف الإجابة كاملة بعد. لكنني لم أعد أخافك. ببساطة أنت مجرد موظف كبير بليد ولا شيء آخر. أنت لا تسحقني بعظمة شخصيتك. لا! إني أفهمك

الآن بوضوح، بعد أن وضعتك داخل قبضة يدي. تلاشى خوفي منك كشيء صبياني. خلعتك من كياني. أنت كالغراء.

ذات مرة عذبتني الشكوك. قلت في نفسي: «أيمكن أن أكون تافهًا حقًا مقارنة به؟ هل من المحتمل أن يكون بالنسبة لي - من حيث كوني رجلا طموحًا - نموذجًا للرجل العظيم؟

ولكن تبين أنك مجرد موظف كبير جاهل وبليد، مثل كافة كبار الموظفين الذين أتوا قبلك وسيأتون بعدك. أنت نموذج مصغر للطغيان مثلهم جميعًا. بإمكان هذا الطغيان وحده أن يفسر ذلك الإعصار الذي تثيره حول قطعة نقانق رخيصة، وبإمكانه كذلك تفسير كيف جلبت شابًا لا تعرفه من الشارع، وربما يكون هذا أيضًا هو سبب تقريب فولوديا ماكاروف إليك؛ هذا الذي لا أعرف عنه سوى أمر واحد؛ إنه لاعب كرة قدم. أنت سيد، تحتاج إلى مهرجين وطفيليات تعيش عالة عليك. لا يراودني شك في أن هذا المدعو فولوديا ماكاروف هرب منك بعد أن لم يعد قادرًا على احتمال سخريتك. لا بد أنك فعلت معه ما فعلته معي؛ حوَّلته إلى أضحوكة بطريقة منهجية.

أعلنت أنه عاش معك كابن لك، وأنه أنقذ حياتك، بل

وكنت تغرق في أحلام يقظتك حوله. أتذكر ذلك. لكن كل هذا كذب. يسوءك بالطبع أن تعترف برغبات السادة بداخلك. لكني شاهدت وحمة على حقوك.

في البداية استأتُ عندما قلتَ أن الأريكة له، وأن بعودته سيتحتم عليَّ أن أتركها وأذهب إلى الجحيم. لكني بمرور برهة قصيرة فهمت أنك تتحلى بالبرود واللا مبالاة صوبه وصوبي على السواء. أنت سيد ونحن متملقان.

لكن بوسعي أن أؤكد لك، أن كلينا لن يعود لك. أنت لا تحترم الناس. لن يعود إليك إلا في حالة أن يكون أغبى مني.

قُدِّر لي ألا يُحكم عليَّ بالأشغال الشاقة وألا أمر بتجربة ثورية. لن يعهدوا إليَّ بمسئولية غلي ماء أو الإشراف على منحل.

ولكن هل يعني هذا أني ابن سيئ لهذا القرن، وأنك العكس؟ أيعني ذلك أني لا شيء بينما أنت ذو شأن عظيم؟

لقد وجدتني في الشارع...

كم تصرفت ببلادة!

قلتَ في نفسك: «لقد وجدته في الشارع. حسنًا، إنه شخصية رمادية، فلندعه يعمل. يعمل مراجع بروفات طباعة، ثم مراجع

بروفات طباعة مجددًا، ثم مصححًا ثم قارئًا... حسنًا!» أنت لم تتعطف إذن على شاب بالشارع، بل أتيت بما يُطربك. أنت مجرد موظف كبير أيها الرفيق بابيتشيف.

من كنت تظن أني أنا؟ لومبنبروليتاريا[1] يحتضر؟ هل قررت أن تدعمني؟ شكرًا لك. أنا قوي، أتسمع ذلك؟ أنا قوي كفاية لأهلك وأنهض وأهلك ثانية.

أنا مهتم بمعرفة ماذا ستفعل بعد أن تقرأ خطابي هذا. هل ستحاول أن تنفيني أم تُودعني بمستشفى المجانين؟ تستطيع فعل كل شيء، فأنت إنسان عظيم الشأن وعضو بالحكومة. لقد حدَّثتني عن أخيك قائلا أنه يجب أن يُطلَق عليه النار. قلت: «فلنرسله إلى كاناتشيكوفا». لقد ترك أخوك فيَّ انطباعًا غير عادي، وهو يبدو لي غامضًا وغير مفهوم. هنا السر الذي لا أعرف عنه شيئًا. اسم «أوفيليا» يثير اضطرابي بغرابة. يبدو لي أيضًا أنك تخشى هذا الاسم.

---

(١) أي ما دون البروليتاريا، وهو مصطلح أطلقه كارل ماركس في بيان الحزب الشيوعي لوصف تلك الطبقة التي تكون في مرتبة دون الطبقة العاملة والذين لا يحظون بنوع من الوعي وغير مفيدين في العملية الإنتاجية أو اجتماعيا، ولا فائدة منهم في النضال الثوري، وربما يمثلون عائقا أمام تحقيق مجتمع لا طبقي.

إني أقوم هنا ببعض التخمينات. أتنبأ هنا بشيء ما. سوف أقف في طريقك. أنا واثق تقريبًا أن الأمر هكذا. لكني لن أسمح لك. تريد أن تستولي على ابنة أخيك. لقد شاهدتها مرة واحدة وحسب. نعم، أنا من حدثتها عن الغصن المليء بالزهور والأوراق. إنك لا تتمتع بالخيال. سخرت مني. سمعت محادثتك التليفونية. لقد لطختني بالعار في عيني الفتاة كما فعلت بأبيها. من غير الملائم لك أن تسمح للفتاة التي تريد أن تُخضعها لك أن تبدو حمقاء في حضورك كما حاولت أن تجعلنا نبدو كذلك، فللفتاة روح رقيقة مضطربة. تريد أن تنتفع منها (وأنا أستخدم هنا هذه الكلمة عمدًا) كما تنتفع من رؤوس الأغنام وجلدها بفضل التوظيف الجيد للمثقاب اللولبي الكهربي، على حد تعبير ماذكرته في كتيبك.

ولكن لا، لن أسمح لك بفعل ذلك. يا لها من مضغة لذيذة لك! أنت شرِهٌ ونهم. هل ستتوقف حقًا أمام أي شيء من أجل وظائف أعضائك؟ ما الذي سيمنعك من إفساد الفتاة؟ هل كونها ابنة أخيك؟

لكنك تسخر من فكرة الأسرة والجنس. تود أن تُدجِّن الفتاة.

لهذا تشوه سمعة أخيك بجنون. لكن أي شخص ينظر إليه نظرة سريعة سيقول: هذا إنسان رائع. لم أعرفه بعد ورغم ذلك أظن أنه ودود، ولا أعرف في أي شيء تحديدًا هو ودود. أنت تضطهده. سمعت كيف ضربت الدرابزون بقبضتك. أنت تجبر الفتاة على مفارقة أبيها.

لكنك لن تستطيع اضطهادي.

سوف أدافع عن أخيك وابنته. اسمع أيها الغبي الذي سخر من حديثي عن الفرع المليء بالزهور والأوراق. اسمع... نعم، لم أستطع التعبير عن فرحتي برؤياها إلا بهذا الهتاف سالف الذكر. ولكن أي كلمات تجهزها لها؟ أتصفني بأني سكير لمجرد أني تحدثت إلى فتاة بلغة لا تألفها؟ ما لا نفهمه إما أن يثير سخريتنا أو خوفنا. أنت الآن تسخر، لكني سأجبرك على الخوف سريعًا. لا تقلق، لا تظن أن بإمكاني التفكير بصورة مجازية وحسب، بل يمكنني كذلك أن أفكر بصورة واقعية. لماذا لا؟ يمكنني أن أتحدث عن فاليا بطريقة عادية، وسوف أقدم لك الآن رجاءً عددًا من التعريفات المفهومة لك عن عمد بهدف إضرام النار بداخلك وجعلك تشعر بالاضطراب بما لا تنال منه الاحترام الواجب يا صانع النقانق المبجل!

نعم لقد وقفت أمامي. نعم، سأقول لها في البداية بطريقتي الخاصة أنها بدت أخف من الظل، وأن أخف ظل؛ ذلك الذي يلوح على الثلوج يمكن أن يحسدها على خفتها. نعم سأقول لها في البداية بطريقتي الخاصة أنها لم تسمعني بأذنها، بل بصدغها، وأنها أمالت رأسها قليلا وأن وجهها يشبه البندقة من حيث اللون بسبب سفعة الشمس، ومن حيث الشكل بسبب عظمتي الوجنتين في استدارتهما وانسحابهما صوب الذقن. أتفهم ذلك؟ لا؟ سأقول لك المزيد إذن. اضطرب وضع فستانها بسبب الركض ولاحت فتحته ورأيت أن جلدها لم تسفعه الشمس كاملا، فقد رأيت على صدرها مفرق الوريد الأزرق.

الآن سأحدثك بطريقتك. سأصفها. تريد أن تلتهمها! وقفت أمامي فتاة تبلغ حوالي ١٦ عامًا، لا تزال تبدو فتاة صغيرة تقريبًا، عريضة المنكبين، ذات عينين رماديتين بشعر أشعث مقصوص، مراهقة فاتنة، رشيقة كقطعة شطرنج (هذا وصف على طريقتي!) ليست مفرطة الطول.

لن تنالها.

سوف تصبح زوجتي. كنت أحلم بها طوال حياتي.

لنتقاتل! لنتصارع! أنت أكبر مني بحوالي ثلاثين عامًا. هذه الأعوام خلفك وأمامي. لا يزال أمامك إنجاز آخر في إنتاج النقانق، لا تزال تسعى إلى إنتاج طعام آخر أرخص؛ هذه حدود نشاطك.

أما أنا فلدي حلم آخر!

لست أنت من سينال فاليا، بل أنا. ستكون بمثابة تعويض لي على كل ما مررت به؛ الإذلال، والشباب اللذان ضاعا مني وحياتي الوضيعة.

حكيت لك عن الطاهية. أَتَذْكر ما قلته لك عن كيف كانت تغتسل في الرواق؟ الآن سوف أرى أمرًا آخر: غرفة في مكان وزمان ما، سوف يغمرها ضوء الشمس، وسيكون هناك وعاء صغير أزرق عند النافذة، وسوف تغتسل فيه[1] وتلمع كسمكة الشبوط، وتبدو كأنها تنقر على لوحة مفاتيح الماء. سوف أبذل كافة جهودي من أجل تحقيق هذا الحلم. لن أتركك تستغل فاليا!

إلى اللقاء أيها الرفيق بابيتشيف.

---

(١) كحوض صغير متنقل.

كيف استطعت أن ألعب هذا الدور المذل طوال شهر كامل؟ لن أعود إليك مجددًا. فلتنتظر، ربما يعود الأحمق الأول خاصتك. فلتبلغه تحيتي. كم أنا سعيد بأني لن أعود إليك!

في كل مرة سوف يعاني منها تقديري لذاتي من شيء ما، سوف أعرف عن طريق اقتران الأفكار؛ أني أتذكر شيئًا ما من تلك الأمسيات التي قضيتها بالقرب من مكتبك. يا لها من رؤى مؤلمة!

إنه المساء. جالسٌ أنت إلى مكتبك. يتلاشى اعتدادك بنفسك من داخلك. «أنا أعمل» - «هذه الأشعة تصدر طقطقة!» - «أتسمعني يا كافاليروف؟ أقول لك إني أعمل، فلا تزعجني... هششششش... أنت محدود الثقافة».

وفي الصباح ينهال الثناء من أفواه كثيرة: «يا له من إنسان عظيم! إنسان مدهش! شخصية كاملة أنت يا أندريه بيتروفيتش بابيتشيف!»

لكن في الوقت الذي تغنى فيه متملقوك بالمدائح، وفي الوقت الذي توقَّدَ فيه اعتدادك بذاتك بداخلك، عاش معك إنسان لم يوله أحد اهتمامًا، ولم يسأله أحد عن رأيه؛ عاش معك إنسان

تتبَّعَ كافة تحركاتك، ودرسك وراقبك، ليس من موقع متدنٍ ولا بشعور بالصغر، بل بطريقة إنسانية هادئة؛ إنسان قد توصل إلى استنتاج مفاده أن كل موظف عظيم الشأن يتسم بشخصية ضيقة الأفق تمامًا، وقد وصل إلى تلك المكانة التي يُحسد عليها بفعل الظروف الخارجية وحسب.

لا داعي للتحامق. هذا كل ما أردت قوله.

أردتَ أن تجعل مني أضحوكة، وها قد أصبحت عدوك. صرخت في أخيك قائلا: «أتدري من تصارع أيها الوغد؟» أنا لا أعرف من كنت تضعه في اعتبارك: هل كنت تضع في اعتبارك نفسك أم حزبك أم مصنعك أم متجرك أم منحلك؟ لكني أقاتلك؛ أقاتل سيدًا غير متميز بدرجة تفوق الناس جميعًا؛ أقاتل سيدًا أنانيًا شهوانيًا غبيًا، واثقًا تمام الثقة أن كل شيء سوف يحدث معه على أفضل حال. إني أقاتل في جانب أخيك؛ أقاتل من أجل الفتاة المخدوعة بك، أقاتل من أجل اللطف والشفقة والشخصية، أقاتل من أجل الأسماء التي تثير الاضطراب مثل «أوفيليا»، أقاتل من أجل كل ما يزعجك أنت أيها الإنسان العظيم. تحيتي لسليمان شابيرو...»

سمحتْ لي الخادمة بالدخول. لم يكن بابيتشيف قد عاد بعد. شُرِب اللبن كالمعتاد. ثمة كأس عكر على الطاولة. بجانبه طبق يحتوي على بعض الكعك الصغير يشبه الحروف اليهودية.

الحياة الإنسانية تافهة. حركة العوالم مخيفة حقًا. عندما قطنت هنا كنت أرى أرنبًا بريًا لامعًا يجلس على عضادة الباب في الساعة الثانية. انقضى ٣٦ يومًا. احتل الأرنب الآن غرفة أخرى.

قطعتْ الأرض جزءًا من طريقها المعتاد. يمكن لأرنب بري لامع ولعبة طفولية أن يذكرانا بالأبدية.

خرجت إلى الشرفة.

استمع الناس بالزاوية إلى جرس الكنيسة. دقت أجراس الكنيسة غير المرئية لي في الشرفة. هذه الكنيسة مشهورة بقارع أجراسها. هز المتثائبون رؤوسهم. كان بإمكانهم رؤية قارع الأجراس الشهير. ذات مرة قضيت أنا أيضًا ساعة طيبة واقفًا بالزاوية. على امتداد قوس الكنيسة لاح برج الأجراس من الداخل. هناك في الظلمة السخامية؛ تلك الظلمة التي توجد عادة في العليات، وبين عوارض العلية المغطاة بخيوط العنكبوت

لاح قارع الأجراس مهتاجًا. كان يتمزق بفعل عشرين جرسًا. انحنى كالحوذي وخفض رأسه، وربما صاح كذلك. في منتصف المكان، في مركز هذه الظلمة السخامية، لوى شبكة من الحبال، سكن تمامًا لوهلة، معلقًا على ذراعيه الممدودتين، ثم اندفع إلى الزاوية وقد شوه تمامًا خيوط العنكبوت. إنه ذلك الموسيقي الغامض غير المدرك، الأسود، وقد يكون مشوهًا تمامًا ككوزايمودو[1].

(بُعد المسافة رسمته فعلا مخيفًا هكذا. لو توفرت الرغبة لكان بالإمكان وصفه هكذا أيضًا: فلاح صغير يرتب أدوات المائدة والأطباق، ويمكن تسمية صوت الأجراس الشهير مزيجًا من جلبة مطعم ومحطة سكك حديدية)

استمعت إلى الصوت من الشرفة.

توم طن طن! توم طن طن طن! توم طن طن طن!

حامت بعد الطنطنة في الهواء.

توم طن وحقيبة ... توم طن وشاب!

(١) بطل رواية أحدب نوتردام لفيكتور هوجو.

كان طنين الأجراس يُحوِّل الكثير من صباحاتي إلى موسيقى. تبدو لي «توم» ضربة الجرس الكبير كصوت الغلاية الكبيرة، وتبدو لي الطنطنات كأصوات الأطباق الصغيرة.

ذات صباح رائع اخترقني طنين الأجراس تحت سقف هذا المأوى. تحولت الجملة الموسيقية إلى مقطع لفظي. تصورت هذا الطنين بحيوية:

شاب يشاهد المدينة. وصل فعلا إلى المدينة شاب لا يعرفه أحد، وهو قريب حقًا، بإمكانه رؤية المدينة الغاطة في نوم عميق غير مرتابة في شيء. ضباب صباحي يتلاشى. تتلوى المدينة في الوادي عبر سحابة خضراء مومضة. ينظر الطنين إلى المدينة مبتسمًا، واضعًا يده على قلبه، يبحث بين صور الطفولة عن خطوط مألوفة له.

ثمة حقيبة معلقة على ظهر الشاب.

سوف يتولى كل شيء.

إنه من يمثل أعلى درجات كبرياء الشباب وظلام الأحلام المختالة.

ستمر الأيام (لن يتكرر كثيرًا أن يقفز الأرنب البري من

عضادة الباب إلى الغرفة الأخرى) وسرعان ما سيغني أولئك الشباب الحالمون بالسير في أحد صباحات شهر مايو وحقائبهم على ظهورهم عبر ضواحي المدينة... سرعان ما سيغنون عبر ضواحي المجد؛ يغنون أغنية عن ذلك الإنسان الذي فعل ما أراده.

توم طن وحقيبة... توم طن وشاب!

وهكذا تحول طنين عادي لأحد أجراس كنائس موسكو إلى حلم رومانسي، يتسم بوضوح بطبع أوروبي غربي.

سأترك الخطاب على الطاولة وأجمع متاعي (ربما في حقيبة ظهري؟) وأرحل. وضعت الخطاب مطويًا داخل مظروف على اللوح الزجاجي بجوار بورتريه ذلك الذي اعتبرته رفيقي في بليتي.

قرْع على الباب. أيكون هو؟

فتحت الباب. وجدته حاملا حقيبته بين يديه، مبتسمًا ابتسامة يابانية، تمامًا كما لو أني شاهدت على الباب صديقًا عزيزًا عليَّ في أحلامي، خجولا، يشبه فاليا بعض الشيء... وجدت توم طن.

كان ذلك الشاب داكن الشعر والعينين هو فولوديا ماكاروف. نظر إليَّ بدهشة ثم تفحص الغرفة بعينيه. عادت نظرته أكثر من مرة إلى الأريكة، وإلى أسفلها حيث كان حذائي.

حيَّاني قائلا:

- مرحبًا.

اقترب من الأريكة وجلس عليها ثم توجه إلى غرفة النوم لبرهة ثم عاد وتوقف عند مزهرية الفلامنجو وسألني:

- أين أندريه بيتروفيتش؟ هل هو في مكتبه؟

- لست متيقنًا من ذلك. سيعود أندريه بيتروفيتش في المساء.

ربما سيجلب معه أحمق جديدًا. أنت الأول وأنا الثاني وسيكون هو الثالث. أم أن بعض الحمقى سبقوك؟ ربما سيجلب معه فتاة تلك المرة.

سأل المطنطن «من؟» وأضاف: «كيف؟» وقد عبس وجهه من عدم الفهم. ارتفع صدغاه.

جلس مجددًا على الأريكة وقد انزعج بفعل حذائي القابع

تحت الأريكة. كان من الواضح أنه لن يمانع أن يزيح حذائي بمؤخرة حذائه طويل العنق. سألته:

- لماذا عدت؟ لماذا عدت بحق الشيطان؟ لقد انتهى دورنا. إنه الآن مشغول بآخرين. إنه يغوي فتاة. إنها فاليا ابنة أخيه. أفهمت؟ أخرج من هنا! أتسمعني؟

اندفعت صوبه لكنه ظل جالسًا دون حركة.

- اسمع! افعل كما فعلتُ. قُل له الحقيقة كاملة... ها هو (والتقطت الخطاب من على الطاولة) ها هو الخطاب الذي كتبته له.

أبعدني عنه. استقرت الحقيبة كعادتها في الزاوية بالقرب من الأريكة. ذهب صوب الهاتف واتصل بمكتبه.

ظلت أغراضي مبعثرة.

طرت هاربًا.

ظل الخطاب معي. قررت التخلص منه. يعيش لاعب كرة القدم معه كابن له. اتضح لي من الطريقة التي استقرت بها حقيبة الظهر في الزاوية، والطريقة التي نظر بها إلى الغرفة ورفع بها سماعة الهاتف وطلب الرقم أنه قديم في هذا المنزل، وأنه يشعر بالألفة فيه، بل إنه في منزله. كانت الليلة السيئة التي قضيتها تؤثر عليَّ. لم أكتب ما أردته حقًا. لم يكن بابيتشيف ليتفهم غضبي، وكانت كلماتي ستبدو له مكتوبة بفعل الحسد. كان سيظن أني أحسد فولوديا.

جيد أن ظل الخطاب معي.

لو لم يظل معي لبدا كطلقة طائشة لاتصيب هدفًا.

لقد أخطأت حينما ظننت أن فولوديا مجرد أحمق في ضيافته، وأنه مجرد شخص يسليه. بالتالي لم يكن عليَّ أن أدافع عنه في خطابي، بل على العكس. بعد أن التقيته الآن لمست مدى كبرياءه. إن بابيتشيف يأوي ويعتني بآخر يشبهه؛ يعتني بهذا الأعمى المتكبر.

بـدت نظرتـه وكأنها تقول: «عذرًا، إنك مخطـيء. المتملق هو أنت، أما أنا فمكافيء له. أنا سيد صغير».

جلست على المقعد، وهنا انكشف أمر مريع.

اتضـح أن المظـروف الـذي معي ليس مظروفي. مظـروفي كان أكبر. ليس هذا خطابي. كان هذا نصه:

«عزيـزي أندريـه بتروفيتش... مرحبًا، مرحبًا! عسـى أن تكون في تمام الصحة. ألا تشـعر بالضيق من السـاكن الجديد بشـقتك؟ ألـم يثيرك إيفان بتروفيتش بـ «أوفيليا»؟ احذر: كلاهما يحسـدك: المدعـو كافاليـروف وإيفان بتروفيتش. خذ حذرك. أنت ضعيف وتَسهل الإساءة إليك. أنظر أنت...

لماذا أصبحت ميالا للثقة بالآخرين هكذا؟ إنك تفسـح مكانًا لـكل قاطـع طريق بمنزلك. اطرده عسـى أن يذهب إلى الجحيم! كان عليـك أن تقـول لـه في اليـوم التالـي: «حسـنًا، لقـد غرقـتَ في النـوم أيهـا الشـاب، لذا وداعًـا!» فكّر في الأمر، أتقـول أنك تفعل ذلك بدافع من الحنان؟! عندما قرأت في خطابك الموضع الذي ذكرت فيه أنك تذكرتني، وأنك شعرت بالأسف على هذا الثمل القابـع علـى حافة الطريق وأنك اصطحبته إلى منزلك إكرامًا لي،

وقلت في نفسك أني قد أمر أنا أيضًا ببلية في مكان ما، وأستلقي مثله على قارعة الطريق... حينما قرأت ذلك، شعرت أني أقرأ كلامًا مضحكًا وغير مفهوم. هذا ليس أنت، بل إيفان بتروفيتش.

ما توقعته حدث فعلا: جلبت هذا الخبيث إلى منزلك، وبعدها احترت بالطبع، ولا تعرف الآن ما العمل معه. سيكون من المحرج لك أن تطلب منه الرحيل. ما العمل إذن؟ الشيطان وحده يعرف! أليس ما أقوله صحيحًا؟ إني - كما ترى - أقرأ طريقة تفكيرك الأخلاقية. إن عملك يجعلك شديد الحساسية، حيث أنك تتعامل مع فاكهة وعشب وعجول وما إلى ذلك. أما أنا فإنسان صناعي. اضحك! اضحك يا أندريه بتروفيتش! إنك تسخر مني دائمًا. أنا من الجيل الجديد كما ترى.

ما العمل الآن؟ إن عدتُ كيف سيكون الأمر مع غريب الأطوار خاصتك؟ هل سوف ينفجر فجأة في البكاء ويرفض مفارقة الأريكة؟ ستشفق عليه بينما أنا سأحسده.

سأطرده وأحطم وجهه. أنت طيب القلب، تكتفي بالصياح والقرع بقبضتك والاشتعال غضبًا، ولكن عندما يحين موعد العمل الحقيقي، تفعل ما تفعله الآن: تُشفق! إن لم تفعل ذلك

من أجلي، فليكن من أجل فاليا التي ستظل تتعذب لدى إيفان بتروفيتش. كيف تتركها هناك؟ ألم تعد بعد؟ أنت نفسك تعلم أن إيفان بتروفيتش إنسان خبيث منافق، وهو نفسه يقول عن نفسه أنه بائس ودجال. أليس كذلك؟ لا تشفق عليه إذن.

حاول أن ترسله إلى مصحة وستجده قد هرب. أو حتى اعرض على كافاليروف أن يذهب إلى مصحة، وستجده قد شعر بالإهانة.

ولكن حسنًا... لا تغضب. أنت من قلت: «علمني يا فولوديا وسأعلمك». ها نحن نتعلم.

سأعود سريعًا؛ في غضون أيام بسيطة. أبي يرسل لك تحيته. وداعًا يا مدينة موروم! بينما أتمشى ليلا أدرك- وهنا أتكلم بصورة مباشرة - أنه لا وجود إطلاقًا للمدينة. لا توجد سوى الورش، أما المدينة الصغيرة فهي ببساطة عبارة عن مجموعة من الورش. كل شيء خاص بالورش ومن أجلها. الورش فوق كل شيء آخر. في ليل المدينة ثمة ظلام مِصري[1]، ضباب، وغيلان

(١) يقصد بمصري الغموض والسحر «الأفكار المتداولة عن الحضارة الفرعونية».

كما يمكنك أن تتصور. في الزاوية، في الحقل تتوهج نيران الورش وتلمع... عيد حقًا! في المدينة شاهدت عجلا يركض خلف مراقب المقاطعة؛ خلف الحقيبة التي كان يحملها تحت ذراعه؛ يركض ويلعق شفتيه. ربما أراد أن يلوك شيئًا أو ما شابه... هذه لوحة: سياج من الأشجار وبركة صغيرة ومراقب يسير مرتديًا قبعة حمراء، يبدو في أفضل حال، وعجل يتوجه صوب الحقيبة. أتفهم هذا التناقض؟

أنا لا أحب هذه العجول. أنا إنسان آلة. أنت لا تعرفني. لقد تحولتُ إلى آلة. إن لم يكن تحولي قد تم بعد، فأنا أود أن يتم. الآلات هنا وحوش! أصيلة! آلات لا مبالية وفخورة على نحو رائع! ليست كتلك الآلات التي تستخدمها في تصنيع نقانقك. آلاتك بدائية. إنها تكتفي بذبح العجول. أود أن أصبح آلة. أريد أن أتشاور معك. أود أن أصبح فخورًا بالعمل، فخورًا لأني أعمل. أود أن أصبح غير مُبالٍ تجاه كل شيء غير العمل كما يمكنك أن تتصور بالطبع. لقد تملكني الحسد للآلة، هذا هو الأمر! في أي مجال أنا أسوأ منها؟ نحن من اخترعناها وصممناها، لكنها تبدو أكثر ضراوة منا. أعطها المجال لتبدأ وستجدها قد انطلقت. تؤدي عملها فلا تجد فيه شرطة زائدة. أريد أن أصبح هكذا.

أتفهمني يا أندريه بتروفيتش عندما أقول أنك لا تجد في عملها ولو شرطة زائدة؟ كم أود أن أتحدث معك!

أنا أحاكيك في كل شيء، حتى إني أحاكيك في طريقة مضغك.

كم فكرت في مدى ما أتمتع به من حظ حسن! لقد رفعتني يا أندريه بتروفيتش. لايعيش كافة أعضاء الكومسمول[1] هكذا، بينما أعيش أنا معك؛ أعيش مع أحكم الشخصيات، مع شخصية مذهلة. أي شخص كان ليمنح كل نفيس لأجل حياة كهذه. أنا أعرف بالفعل كثيرين يحسدونني. شكرًا لك يا أندريه بتروفيتش! لا تسخر مني، فأنا أعترف بحبي لك. تقول وتعترف بالحب! أهذا صحيح؟ لا... أحدثك بالحقيقة: سأصبح آلة.

كيف حالك؟ هل أنتم مستمرون في تشييد الـ «ربع روبل»؟ هل انهار أي شيء؟ وكيف حال «الدفء والقوة»؟ هل شيدتوها؟ وماذا عن «كامبفير»؟

كيف الحال بالمنزل؟ أقصد كيف حال الأريكة التي ينام فوقها مواطن لا أعرفه؟ سوف يجلب القمل إليها. أتذكر كيف

(١) اتحاد منظمات الشباب السوفيتي، تأسس بعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٨م في المراكز الحضرية.

أبعدونني عن مباراة كرم قدم؟ إلى الآن لا يزال للأمر صدى. أتذكر كيف أبعدونني؟ هل خفت وقتها يا أندريه بتروفيتش؟ أحقًا خفت؟ أنت من يسيل لعابه خوفًا عليَّ. استلقيت على الأريكة، وكانت ساقي ثقيلة كالقضيب. أنظر إليك، وإذا أنت جالس إلى طاولتك منخرطًا في الكتابة تحت ظل المصباح الأخضر. أنظر إليك، وفجأة تنظر إليَّ؛ فأغلق عينيَّ فورًا كما كنت أفعل مع ماما!

بخصوص كرة القدم: سوف ألعب ضد الألمان في فريق موسكو. وإن لم يلعب شوخوف، ربما أشارك أيضًا في فريق اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. يا للجمال!

بالنسبة لفاليا: سنتزوج بالطبع. سيتم ذلك في غضون أربعة أعوام. تضحك قائلا أننا لن نحيا كل هذه المدة. ها أنا أعلنها لك: في غضون أربعة أعوام. نعم، سوف أكون إديسون القرن الجديد. سأُقبِّلها أول مرة يوم افتتاحك لمشروعك الـ «ربع روبل» خاصتك. نعم. ألا تصدق؟ اتفقنا على ذلك. أنت لا تعرف شيئًا. في يوم افتتاح الـ «ربع روبل» سوف نتبادل القبلات عند المنبر مع الموسيقى.

لا تنسني يا أندريه بيتروفيتش. ماذا إن عدتُ فجأة وتبين أن كافاليروف قد أصبح صديقك المفضل، وأنك نسيتني واستبدلته بي[1]! يؤدي التمرينات الرياضية معك ويذهب معك إلى موقع البناء. ألا يكفي ذلك؟ وقد يتبين لك أنه شخصية رائعة، أفضل بدرجة لا تقاس مني. ربما تكون قد تصادقت معه، ويتوجب عليَّ - أنا إديسون القرن الجديد - أن أذهب إلى الجحيم. ربما تجلس معه، نعم مع إيفان بتروفيتش، نعم مع فاليا، وتسخر مني! وهل سأجد فتاك كافاليروف قد تزوج فاليا؟ قُل لي الحقيقة. حينها سأقتلك يا أندريه بتروفيتش. كلمة شرف. سأفعل ذلك لخيانتك اتفاقنا. هل فهمت؟

حسنًا، لقد كتبت خطابًا طويلا، وأنا أزعج رجلا مشغولا بعمله. كتبت ذلك حتى يصبح كل شيء كما يجب بالضبط، ولكن حتى ذلك قد تجاوز الحد. لكن هذا لأننا منفصلين... أليس كذلك؟ إلى اللقاء أيها العزيز والمبجل... إلى اللقاء، عسى أن نلتقي قريبًا».

(١) الباء تُلحق بالمتروك وليس العكس كما يُشاع عادة بشكل خاطيء.

حامت سحابة ضخمة بخطوط أمريكية جنوبية فوق المدينة. لمعت لكن ظلها بدا مخيفًا. كان الظل يتحرك فلكيًا ببطء فوق شارع بابيتشيف.

كل من ساروا في هذا الشارع أو في الاتجاه المعاكس رأوا حركة الظل، وأظلم كل شيء في عيونهم وسُحب البساط من أسفل أقدامهم. بدوا كأنهم يسيرون على كرة مستديرة.

شققت طريقي وسطهم.

تدلت شرفة. لا معطف على الدرابزون. لم تكن الأجراس تدق في الكنيسة. حللت بدلا من المتثائبين عند زاوية الشارع. لاح شاب في الشرفة. أدهشه الضباب الذي غطى المكان. رفع رأسه مطلا من فوق الدرابزون.

سلم، باب، ثم أقرعُ الباب. ترتعش طية صدر سترتي من فرط اضطراب قلبي. جئتُ لأتعارك. أدخلوني وأول من رأيت كان أندريه بابيتشيف. يقف في منتصف الغرفة وقد مد ساقيه؛ هاتين الساقين اللتين لا بد أن أسفلهما جيشًا من الأقزام. يداه مطويتان داخل جيبي سرواله. أزرة سترته مفكوكة ومسحوبة إلى الخلف.

اتخذ طرفاها شكل محارة بسبب وضع يديه في جيبي سرواله، ولسان حاله يقول:

- حسنًا، ماذا تريد؟

أراه وحده، ولا أسمع سوى صوت فولوديا ماكاروف.

أخطو داخل شقة بابيتشيف. يتساقط المطر.

سأركع الآن على ركبتيَّ أمامه وأقول:

- لا تطردني يا أندريه بتروفيتش! لا تطردني! ثِق بي ثقتك بفولوديا! ثق بي! أنا أيضًا شاب، وسوف أصبح أنا أيضًا إديسون القرن الجديد. سوف أتعبد لك أنا أيضًا. كيف أمكنني تفويت ذلك؟! كيف استطعت أن أكون بهذا العماء إلى درجة ألا أفعل كل شيء من شأنه أن يجعلك تحبني. سامحني! سامحني وامنحني مهلة أربعة أعوام...

لكِني لا أسقط على ركبتي أمامه، بل أسأله بحقد:

- لماذا لم تذهب إلى العمل؟

أسمع رده:

- أُخرج من هنا!

أجابني سريعًا كما لو كنا نتدرب على أدوار على المسرح. لكن الإشارة المسرحية[1] لم تصل إلى وعيي إلا بعد برهة من الزمن.

حدث أمر مدهش.

تساقط المطر. ربما أبرقتْ.

لا أريد أن أتحدث بلغة مجازية. أود أن أتحدث ببساطة.

ذات مرة كنت أقرأ في كتاب «الطقس» لكميل فلاماريون[2] (يا له من اسم فلكي! فلاماريون! يصلح اسمًا لنجم). يصف البرق في الكتاب، وتأثيره المدهش كاملا: كرة ناعمة تتدحرج بصمت في الفضاء، يملأها ضوء يعمي الأبصار... آه، كم أنا بعيد عن أن أُجري مثل هذه المقارنات المبتذلة! لكن السحابة كانت غريبًا فعلا. اقترب الظل كما لو أني أحلم. تساقط المطر. كانت نافذة غرفة النوم مفتوحة. يستحيل أن أترك نافذة مفتوحة

---

(١) بلغة المسرح: مفتاح أو كيو، أي أن الممثل يحفظ كلمة مفتاحية تكون في ختام حديث شخصية أخرى تشير له أن يبدأ جملته.

(٢) مؤلف وكاتب وعالم فلك فرنسي

أثناء عاصفة رعدية. يا لها من رياح عاتية!

مع تساقط المطر، مع تلك القطرات المرة كالدموع، والرياح العاصفة التي تجعل الفازة المرسوم عليها طيور الفلامنجو تركض كاللهيب، مضيئة الستائر التي تبدو وكأنها تركض هي الأخرى أسفل السقف، تظهر فاليا آتية من غرفة النوم.

لكن الأمر صعقني أنا وحدي. في الحقيقة كل شيء بالمشهد كان بسيطًا: وصل صديق، وهرع بقية الأصدقاء للقائه.

ربما عرج بابيتشيف على فاليا التي ربما كانت تحلم بهذا اليوم. كل شيء بسيط. عليَّ أن أتوجه إلى المصحة لأُعالَج بالتنويم المغناطيسي، حتى لا أبتكر صورًا ولا أعود أنسب تأثيرات البرق إلى فتاة.

هكذا سأفسد بساطة الأمر لك.

تكررتْ على مسامعي:

- أخرج من هنا!

أبدأ في القول:

- ليست الأمور كلها بهذه البساطة.

ظل الباب مفتوحًا. نمى لي جناح بفعل الرياح. يخفق أسفل كتفي بجنون ويصل بالقرب من جفني. خدَّرت الرياح نصف وجهي. أقول بينما أمسك بعضادة الباب لأكسر هذا الجناح المريع:

- ليست الأمور كلها بهذه البساطة. لقد رحلتَ يا فولوديا، وفي هذه الفترة عاش الرفيق بابيتشيف مع فاليا. عندما تنتظر هناك أربعة أعوام، سينجح أندريه بتروفيتش في أن يرفِّه كفاية عن فاليا.

وجدت نفسي خلف الباب. كان نصف وجهي مخدرًا. ربما لم أشعر بالضربة. نقر القفل فوقي كما لو أن فرعًا قد انكسر وسقطت من فوق شجرة رائعة كثمرة كسولة أفرطت في نضجها، مرتشحة على الأرض. قلت بهدوء:

- حُسِم الأمر. الآن سوف أقتلك أيها الرفيق بابيتشيف.

-١٥-

يتساقط المطر.

تسير مياه الأمطار على الرصيف الملون، تتهادى صوب

الميدان، تنعطف على الرصيف يمينًا، وما إن تصل إلى مرتفعات بتروفسكي، حتى تفقد بصرها فجأة وكذلك ثقتها بنفسها.

عبرتُ القناة مستغرقًا في التفكير في ذلك المبارز الأسطوري الذي سار تحت المطر يصد قطرات المطر بسيفه. لمع السيف، واهتزت أطراف سترته، واستدار المبارز، وتمايل كآلة الفلوت[1] وظل جافًا. لقد نال إرثه الأبوي. ابتللتُ حتى ضلوعي، ويبدو أني تلقيت صفعة.

أجد أن هذا المشهد الطبيعي الذي يمكن ملاحظته عبر زجاج المجهر يفوز من ناحية لمعانه ووضوحه وتجسيمه. الألوان والخطوط تبدو أكثر حدة. شيء كان يبدو عاديًا، وفجأة يصبح صغيرًا إلى درجة مضحكة عبثية. يبعث ذلك في الملاحظ تصورات طفولية، تمامًا كما لو أنه يحلم. فلتلاحظ إنسانًا نحَّى عنه المجهر وبدأ يبتسم ابتسامة خفيفة.

بعد تساقط المطر اكتسبتْ المدينة لمعانًا وتجسيمًا. رأى الجميع الترام مطليًا باللون القرمزي، ولم تبدُ حجارة الجسر البعيد بلون واحد، بل ظهرت وسطها بعض الحجارة الخضراء،

---

(١) آلة نفخية مصنوعة من المعدن وغالبًا تكون من الفضة.

وصعد الرسام على القمة، وقد خرج من محرابه حيث كان متواريًا من المطر كالحمامة، وتوجه صوب لوحته القرميدية. رأى الجميع كذلك صبيًا واقفًا عند النافذة يعكس أشعة الشمس على قطعة زجاج... اشتريت بيضًا من فلاحة ورغيفًا فرنسيًا. كسرت البيضة على عارضة الترام، على مرأى من الركاب، وهربتُ سريعًا عبر بوابات بتروفسكي.

توجهت إلى أعلى. كنت أمر بالدكك وتبدو على مستوى ركبتيَّ. الزقاق هنا أكثر التفافًا. كانت ثمة أمهات رائعات جالسات على الدكك وقد تدثرن بشالاتهن. لمعتْ الأعين على الوجوه التي سفعتها الشمس كحراشف السمك. لاحت سفعة الشمس كذلك على الأعناق والأكتاف. أما الصدور الكبيرة الشابة، لاحت بيضاء عبرستراتهن. وحيدًا وحزينًا ارتشفتُ هذا البياض الذي أُطلِق عليه: اللبن والأمومة والزواج والفخر والنقاء.

كانت مرضعة تهدهد طفلا يشبه في ثيابه بابا روما.

ثمة بذرة عالقة على شفتيْ تلك الفتاة ذات العُصبة الحمراء. كانت الفتاة تستمع إلى الفرقة الموسيقية، ولم تلحظ كيف

خاضت في البركة الموحلة. وبدت آلات النفخ النحاسية كآذان الفيل.

بالنسبة لهم جميعًا: الأمهات والمرضعات والفتيات والموسيقيين الممسكين بأبواقهم، بدوتُ كالمهرج. نظر إليَّ عازفو الأبواق شزرًا، بل وازدادت وجناتهم انتفاخًا. ضحكتْ الفتاة الصغيرة عندما سقطتْ البذرة من شفتيها أخيرًا. حينها فقط لاحظتْ البركة الموحلة. حمَّلتني ذنب خوضها في الوحل وأشاحت بظهرها لي بغِل.

سأثبت لهم أني لست مهرجًا. لا أحد يفهمني. غير المفهوم إما أن يبدو مثيرًا للسخرية أو الخوف. سوف يصبح مخيفًا للجميع.

اقتربتُ من مرآة الشارع.

أحب مرايات الشارع جدًا. تظهر فجأة على جانب الطريق. طريقك عادي وهادىء، طريق من الطرق التي تجدها عادة في المدينة، لا يعدك برؤية عجائب أو رؤى. تسير فيه دون أن تتوقع حدوِث أي شيء، وترفع عينيك، وفجأة يتضح لك في غمضة عين أن ثمة تغييرات غير عادية قد طرأت على قواعد العالم.

تهشمت قواعد علم البصريات، تهشمت قواعد علم الهندسة،

وبالتالي تهشمت طبيعة ما كان يمثل طريقة سيرك وحركتك؛ تهشمت الرغبة في الذهاب إلى حيث كنت ذاهبًا تحديدًا. تبدأ في الاعتقاد بأنك قادر على الرؤية بقذال رأسك، بل إنك تبتسم بارتباك للمارة وترتبك بسبب أفضليتك. تتنهد بهدوء:

- آآه.

الترام الذي كان قد توارى لتوه عن ناظريك، يندفع مجددًا أمام عينيك، ويمزق حافة الرصيف كما تفعل السكين بالكعكة. تتدلى قبعة من القش على رباط أزرق بيد أحدهم. رأيتها في هذه اللحظة وجذبتْ انتباهك، لكنك لم تستطع أن تنظر إليها بإمعان، ثم تعود لتظهر أمام عينيك.

تمتد المسافة أمام عينيك. الجميع واثقون من أن هذا منزل وهذا حائط، لكنك وُهبت أفضلية، وبالتالي تقول لنفسك: هذا ليس منزلًا! لقد اكتشفت السر: هذا ليس حائطًا، بل عالم خفي يتكرر فيه كل ما رأيته لتوك، وبالتالي يتكرر بتجسيم ووضوح لا يراهما المرء سوى عبر زجاج المجهر.

وكما يقولون: انقطعتْ أنفاسك. تم خرق القواعد على نحو فجائي، وتغيرت النسب على نحو لا يُصدق. لكنك

مسرور بهذا الدوار... بعد أن خمَّنت الأمر، تُسرع إلى المربع الأزرق. وجهك ثابت في المرآة، وهو وحده الذي يحتفظ بأبعاده الطبيعية، لكنه الوحيد الذي حافظ على سلامة قواعد العالم، في الوقت الذي تَلَفَ فيه كل شيء وتغير واكتسب نظامًا جديدًا لا يمكنك أن تعتاد عليه أبدًا حتى إن مكثت لساعة كاملة أمام المرآة حيث يبدو وجهك وكأنه موجود وسط حديقة استوائية. الأخضر شديد النصاعة، والسماء شديدة الزرقة.

طالما لم تتنح من أمام المرآة لن تستطيع أبدًا أن تحدد إلى أي اتجاه يتوجه السائر الذي تراه عبر المرآة. يكفي حينها أن تستدير.

أَنظر إلى المرآة وأَمضغ قطعة من الرغيف.

استدرتُ.

كان السائر متوجهًا صوب المرآة بعد أن ظهر من إحدى الزوايا. لم أسمح له بالنظر عبرها. الابتسامة التي كان قد أعدها ليراها عبر المرآة وصلتني أنا. كان أقصر مني، ورفع رأسه إليَّ.

كان مُسرعًا صوب صوب المرآة ليطرح عنه يرقانته[1] التي تدلت على الجانب البعيد من كتفه. طرحها عنه وتعالى صوت قرقعة، مستديرًا بكتفه كعازف الكمان.

واصلت التفكير في الخدع البصرية على بؤرة المرآة، لذا سألت أحد المارة الذين اقتربوا مني، ولم أكن قد عرفته بعد:

- من أي جهة أتيت؟ من أين ظهرت؟

نظر إليَّ بعينين صافيتين وقال:

- أتقول من أين جئت؟ أنا من جئت بنفسي.

خلع قبعته ولاحت صلعته، وانحنى مُحييًا إياي بأناقة مبالغ فيها، كما يُحيي آخذ الصدقة المحسنَ إليه، ولاحت تحت عينيه جيوب، تدلت منهما كجوارب بنفسجية. كان يمص بعض الحلوى.

سرعان ما تعرفت عليه: هذا صديقي، المعلم والمعزِّي.

جذبته من ذراعه، وكدت أن أرمي نفسي عليه، قائلا:

---

(١) أَحدُ أَطوار النموّ في بعض الحيوان كالحشرات والفشريات والرِّخويات وغيرها يخرج من البيضة، وقد يتحول إِلى الحيوان اليافع مباشرة، كما في الجراد. الصورة هنا تخيلية بالطبع.

- قل لي! أجبني!

رفع حاجبيه.

- من هي أوفيليا؟

كان على وشك الإجابة، ولكن في تلك اللحظة انسال من جانب شفتيه سائل الحلوى السكري. انتظرت رده شاعرًا بالبهجة والنشوة.

الجزء الثاني

-١-

لم يكن إيفان بابيتشيف يخشى اقتراب الموت. صحيح إنه أحيانًا كان يضج بالشكوى من سرعة مرور الحياة وضياع الأعوام وسرطان المعدة المتوقع وما إلى ذلك، لكن جميعها كانت شكاوى هينة، وفي كل الأحوال لم تكن صادقة؛ هي مجرد شكاوي شخص يحب الخطابة.

اعتاد أن يضع يده على الجانب الأيسر لصدره، ويبتسم متساءلا:

- تُرى ما الصوت الذي سيصدر إن توقف القلب عن الخفقان؟ سؤال شيق.

ذات مرة رفع يده مشيرًا لأصدقائه إلى ظهر يده حيث كانت العروق تبدو كشجرة واندفع عبر وصلة ارتجالية:

«هذه هي شجرة الحياة. هذه هي الشجرة التي تخبرني عن

الحياة والموت أكثر مما تخبرني به أشجار الحدائق المزهرة والذابلة. لا أتذكر متى تبينت تحديدًا أن يدي تزهر كشجرة. لكن لا بد أن ذلك قد حدث في وقت رائع حينما كان ازدهار وذبول الشجر لا يحدثني عن الحياة والموت، بل عن نهاية وبداية عام دراسي! ازدادتْ زرقة حينها... بدت هذه الشجرة زرقاء متناسقة، أما الدماء التي كنت أفكر فيها وقتها لم تكن سائلا، بل نور غمرها كالفجر، وجعل مشط اليد بأكمله يشبه لونًا مائيًا يابانيًا.

مرت الأعوام. تغيرتُ وتغيرتْ الشجرة...

أتذكرُ فترة رائعة ازدهرت فيها الشجرة. اختبرتُ لحظات من الفخر بينما أرى ازدهارها الساحق.

أصبحت الشجرة معقوفة وسمراء، وربما توارت قوتها خلف ذلك! أستطيع أن أطلق عليها «حبل يدي الجبار». أما اليوم يا أصدقائي... كم أصبحت متداعية! كم أصبحت متعفنة!

يبدو لي أن الفروع تنكسر، وتظهر التجاويف... هذا هو تصلب الأنسجة يا أصدقائي. يصبح الجلد كالزجاج ويسيل النسيج. ألا يشبه ذلك أن يكتنف شجرة حياتي ضباب؛ تلك

الضبابة التي سرعان ما سوف تكتنفني كاملا؟»

الأخوة بابيتشيف كانوا ثلاثة. إيفان كان الثاني. كان الأكبر يُدعى رومان. كان عضوًا في منظمة عسكرية، وأُعدِم لمشاركته في عمل إرهابي.

عاش الأخ الأصغر: أندريه خارج البلاد. كتب له إيفان في باريس: «كم يروق لك الأمر يا أندريه! لدينا شهيد في أسرتنا. كم كانت الجدة لتُسر بذلك!» رد أندريه بخشونته المفطور عليها وباختصار قائلا: «أنت نذل!» وهكذا نشبت الخلافات بين الشقيقين.

منذ الطفولة وإيفان يُدهش الأسرة والأقرباء.

عندما كان صبيًا في الثانية عشر كشف في محيط العائلة عن جهاز غريب الشكل؛ شيء يشبه الأباجورة بأهداب على شكل أجراس، وأكد لهم أنه يمكن عن طريق جهازه هذا أن يستثير أي حلم في أي شخص حسب الرغبة. قال الأب مدير الجيمنازيا ومدرس اللاتينية:

- حسنًا، أنا أصدقك. أريد حلمًا من التاريخ الروماني.

سأل الصبي بنشاط:

- ماذا تريد تحديدًا من التاريخ الروماني؟

- سيان. فلتكن معركة فارسالوس[1]، ولكن إن لم تستطع فعل ذلك سأجلدك.

في وقت متأخر بالمساء انطلق من الغرف وميض رنين ساحر. استلقي مدير الجيمنازيا في حجرته ثابتًا ومستقيمًا من التوتر كما لو أنه في تابوت. تأكدت أمي[2] من إغلاق الأبواب بإحكام. فانكا[3] الصغير، توجه صوب الأريكة وابتسامة طيبة ترتسم على وجهه، مهتزًا والأباجورة في يده، كالبهلون الممسك بمظلته الصينية. في الصباح اندفع الأب - قبل أن يرتدي ثيابه - في ثلاث قفزات من غرفته إلى غرفة الأطفال، وجذب فانيا السمين الطيب النائم الكسول من فراشه. كان النهار لا يزال واهنًا، وربما كان ليحدث شيء، لكن المدير فتح الستائر مرحبًا بحلول الصباح الكاذب. أرادت الأم أن تحول بينه وبين الجلد، واعترضته بيديها صائحة:

---

(١) مِعركة فارسالوس، وقعت بين جيشي قائدي الرومان يوليوس قيصر وبومبيوس الكبير عام ٤٨ ق م.

(٢) فليلاحظ القارئ أن الراوي هنا هو إيفان بابيتشيف.

(٣) تدليل إيفان.

- لا تضربه يا بيتينكا. لا تضربه... لقد أخطأ. أعطيك كلمة شرف بأن هذا ما حدث... وماذا في الأمر إن لم تكن قد حلمت بشيء؟ لقد صدر الرنين من الجانب الآخر، وأنت تعرف كيف هو الحال في شقتنا من حيث أنها رطبة. أنا... أنا حلمت بمعركة فارسالوس... حلمت بالمعركة يا بيتينكا.

قال المدير:

- لا تكذبي. احكي لي تفصيلا. ما الفارق بين عدة الرماة البلياريين[1] ورماة المقلاع النوميديين[2]؟ ها؟

انتظر دقيقة، وانفجرت الأم في البكاء، وتم جلد مُجرِي التجارب الصغير. كان مثل جاليليو. في المساء أخبرتْ الخادمة سيدتها أنها لن تتزوج دوبرودايف الذي تقدم إليها بطلب الزواج. قالت:

---

(١) نسبة إلى جزر البَلْيَار أو جزر البَلِيَار منطقة تقع في شرق إسبانيا.

(٢) نسبة إلى نوميديا، هي مملكة أمازيغية قديمة، تقع في ما يعرف الآن بالجزائر، وجزء من تونس وليبيا، وكذلك جزء في أقصى شرق المغرب حتى وادي ملوية.

- إنه يكذب طوال الوقت. تصديقه أمر مستحيل. حلمت طوال الليل بجياد. كانت جميعها تقفز من أماكنها، وبدت مريعة، وبدت كما لو أنها ترتدي أقنعة. رؤية الجواد في الحلم تشير إلى الكذب.

بفقدان الأم سيطرتها على فكها السفلي مضت إلى باب المكتب كالمجنونة. شُدِهت الطاهية الواقفة عند الموقد، وشعرت أنها تفقد سيطرتها هي الأخرى على فكها السفلي.

ربتتْ الزوجة على كتف زوجها. كان جالسًا إلى الطاولة، منهمكًا في لصق المونوجرام[1] إلى علبة السجائر. همست الأم:

- بيتروشا... اسأل فروسيا. يبدو أنها حلمت بمعركة فارسالوس.

نجهل كيف تعامل المدير مع حلم الخادمة. أما بالنسبة لإيفان، فمن المعروف أنه بعد مرور شهر أو اثنين من حكاية

---

(١) شِكل من أشكال التداخل أو الجمع بين حرفين أو أكثر أو حروف أخرى لتشكيل رمز واحد. غالبًا ما يتم إجراء المونوجرام من خلال الجمع بين الأحرف الأولى لفرد أو شركة، وتستخدم كرموز أو شعارات يمكن التعرف عليها.

الأحلام الصناعية هذه كان قد أعلن عن اختراعه الجديد.

بدا أنه اخترع نوعًا من الصابون وأنبوبًا خاصًا، يمكن باستخدامهما أن يُطلق فقاعة مدهشة من الصابون. عندما تطير هذه الفقاعة تزداد حجمًا حتى تصل إلى حجم الكرات التي نعلقها على شجرة عيد الميلاد، ثم تصل إلى حجم مشتل أزهار بمنزل صيفي، ويزداد حجمها أكثر فأكثر حتى تصل إلى حجم منطاد، وحينها تنفجر مطلقة نوبة قصيرة من أمطار ذهبية فوق المدينة.

كان الأب في المطبخ. كان من ذلك النوع الكئيب من الآباء الذين يفتخرون بمعرفتهم لأسرار المطبخ، ويعتبرون قدرتهم على تحديد عدد أوراق نبات الغار[١] اللازمة لصنع حساء شهير عرفوه بالوراثة، أو على معرفة الزمن اللازم لسلق البيض في القدر، أو الوضع المثالي للوصول إلى الحالة المثالية للبيض البوشيه[٢] ميزة مهمة. أسفل نافذة المطبخ المطلة على الفناء، وتحت الحائط ذاته، انخرط في أحلام يقظته. استمع إليه أبوه

---

(١) الغار عبارة عن أشجار كبيرة معمرة اسمها العلمي Laurus nobilis. استخدمها اليونانيون والرومانيون كمادة طبية.

(٢) طريقة لسلق البيض. يُسكب البيض داخل الماء المغلي: سلق بدون قشرة.

بأذنه الصفراء واختلس النظر إليه. أحاط الصبية إيفان. كان إيفان يكذب عليهم بخصوص فقاعة الصابون. قال إنها سوف تصبح كبيرة بحجم الكرة الأرضية.

أُفرِزت الصفراء مجددًا في جسد الأب[1]. منذ عام مضى فارق الابن الأكبر رومان الأسرة. قسَّم الأب روحه على الابنين الأصغر منه.

آذاه الرب بأبنائه...

ارتد عن النافذة، بل إنه كان يضحك من فرط الضغينة. انتظر على الغداء أن يعلن إيفان عن أمره، لكنه لم ينبس بشفة. اشتعل الأب غضبًا وقال في نفسه: «يبدو أنه يحتقرني. يبدو أنه يعتبرني أحمق». قبيل الغروب، وعندما كان الأب يشرب شايه في الشرفة، لاحت فجأة من مكان بعيد جدًا كرة كبيرة برتقالية تحت أشعة شمس الغروب فوق حقله المستوي الضئيل. كانت تطفو ببطء عابرة إياه في خط منحرف.

هرع المدير صوب غرفته ورأى عبر انفراجة باب الغرفة إيفان

---

(١) ترتبط عاطفة الغضب بالعصارة الصفراوية ويمكن أن تسبب الاستياء والتهيج.

واقفًا عند حافة النافذة. كان قد اندفع صوب النافذة وانخرط في التصفيق بصوت عال.

تذكر إيفان بتروفيتش قائلا:

«في هذا اليوم وصلتُ إلى تمام الرضا. شعر أبي بالخوف. كنت أراقب عينيه طويلا لكنه كان يشيح ببصره عني. بدأت أشعر بالأسف عليه. بدأ وجهه يشحب وتصورت أنه سيموت. خلعت معطفي بكرم. كان إنسانًا جافًا، ضيق الأفق ومهمل. لم يكن يعرف أن منطاد ارنست فيتولو طار في هذا اليوم فوق المدينة. أعلنتْ المصلقات ذلك قبلها بفترة. اعترفتُ طواعية بالخدعة: عليَّ أن أخبرك أن تجاربي المتعلقة بفقاعات الصابون لم تؤد إلى النتائج المرجوة منها.»

(بخصوص ذلك تخبرنا الحقائق أن في تلك الفترة التي كان فيها إيفان بابيتشيف طالبًا بالجيمنازيا في الثانية عشر، لم يكن الطيران قد حقق بعد تطورًا كبيرًا وكان من الصعب أن تمر رحلات طيران فوق مدينة إقليمية. لكن إن كان ما يقوله محض تلفيق، فلندعه يلفق! العقل شغوف بالتلفيق!)

استمع الأصدقاء باستمتاع إلى وصلة إيفان بابيتشيف الارتجالية.

«يبدو لي أن في الليل، وبعد انقضاء هذا النهار الكئيب حلم أبي بمعركة فارسالوس. لم يذهب إلى الجيمنازيا بالصباح. جلبت ماما إليه مياه معدنية علاجية بحجرته. في كل الأحوال اضطرب بسبب تفاصيل المعركة. ربما لم يكن قادرًا على التصالح مع هذه السخرية من التاريخ التي أطلقها الحُلم... ربما حلم بأن رماة المقلاع قرروا في نهاية المعركة أن يطيروا في مناطيد هوائية...»

بهذه الخاتمة أنهى إيفان بابيتشيف قصة فقاعات الصابون خاصته. في مرة أخرى سيحكي لأصدقائه عن حكاية من فترة شبابه:

«كان ثمة طالب يُدعى شيميوت يغازل آنسة شابة. أسوأ ما في الأمر هو أني لا أذكر اسمها. دعونا نقلْ أنها كانت تُدعى مثلا: ليليا كابيتاناكي، تدق بكعبيها كالعنزة. كنا - نحن الصبية - نعرف كل ما يحدث في الفناء. كان الطالب يضني نفسه تحت شرفة ليليا، مستعدًا وخائفًا في الآن ذاته من ظهور الفتاة عبر الأمعاء الذهبية لأبواب الشرفة؛ تلك الفتاة التي لا بد وأنها قد بلغت السادسة عشر، وبدت لنا نحن الصبية كامرأة عجوز.

اكتست قبعة الطالب بالزرقة وتوردت وجنتاه. وصل الطالب على دراجته. كان حزنه لا يوصف عندما حدث أنه في أحد آحاد مايو؛ في واحد من تلك الآحاد التي لم يحص منها علم الأرصاد الجوية أكثر من عشرة آحاد؛ في واحد من تلك الآحاد التي يهب فيها نسيم لطيف وعليل يود المرء من فرط لطفه أن يربط حوله وشاح هدايا أزرق، رأى الطالب بعد أن هرع إلى الشرفة خالة ليليا تستند إلى السياج، مبرقشة ومبهرجة كغطاء على مقعد بذراعين في غرفة معيشة بضاحية مدينة، بكعكة شعرها الهلالية وكشكشات وتسريحة تشبه الحلزون. من الواضح أن الخالة ابتهجت بمرأى الطالب شيميوت. يمكننا أن نقول أنها فتحت أحضانها للطالب من موقعها بالأعلى، وأعلنت بصوت يشبه صوت البطاطس؛ صوت مليء باللعاب وحركة اللسان، كمن يتحدث أثناء مضغه لشيء حار قائلة:

- ليليتشكا[١] ستذهب إلى خيرسون[٢]. سوف ترحل اليوم في السابعة وأربعين دقيقة. ستبقى هناك طويلا؛

---

(١) تدليل ليليا.

(٢) مدينة بجنوب أوكرانيا.

طوال الصيف. لقد طلبت مني أن أُبلغك تحيتها يا سيرجي سيرجيفيتش. إلى اللقاء!

لكن الطالب فهم بشعور العاشق كل شيء؛ فهم أن ليليتشكا كان تنشج في أعماق الغرفة الذهبية، وأنها تندفع صوب الشرفة وترى الطالب - دون أن يراها هو - وترى أي سترة ارتداها، ولكونها بيضاء تمتص - طبقًا لقوانين الفيزياء - أكبر عدد من الأشعة، وتُطلق بياضًا يعمي الأبصار كبياض جبال الألب. لكن الهروب مستحيل، ونفوذ الخالة لا نهائي.

قلتُ للطالب:

- أعطني دراجتك وسأثأر لك. أنا أعرف أن ليليا لم ترد الذهاب إلى أي مكان. إنهم يرسلونها بعيدًا بسبب الفضيحة. أعطني دراجتك.

سألني الطالب خائفًا مني:

- كيف ستثأر لي؟

في غضون بضعة أيام جلبتُ لخالة ليليا علاجًا للثآليل، مُدعيًا أنه من أمي. كان ثمة ثؤلول كبير بالقرب من شفتها السفلى، عند زاويتها. غمرتني هذه العجوز بالقبلات، ولسبب ما تركت فيَّ

هـذه القبـلات انطباعًا كما لو أنهـم يضربونني من مقلاع جديد في نقطـة مكشـوفة... انتقمـت يا أصدقائـي للطالـب. نَمَتْ زهرة من ثؤلـول الخالـة؛ ناقـوس بـري متواضـع. يرتعـش بيسـر مـع تنفـس الخالـة. أصبحـت هـي محـل الخزي. كانـت تندفع صـوب الفناء بأيدي مرفوعة صوب السماء، مُلقية الخوف في قلوب الجميع.

تضاعفـت فرحتـي. فرحـت في المقـام الأولـى بالنجـاح الباهر لتجربتي في زرع زهرة من ثؤلول. في المقام الثاني أعطاني الطالب دراجته.

في هـذا العصـر يـا أصدقائـي كانـت الدراجة شيئًا نـادرًا. كانوا حينها لا يزالون يرسمونها في الرسوم الكاريكاتيرية.

- وماذا حدث للخالة؟

- آآه يا صديقي! عاشت هكذا بهذه الزهرة حتى الخريف. انتظرتْ بأمـل مجـيء الأيـام المليئة بالرياح، وبعـد أن انتظـرت تراجعـت إلـى الخلـف منطلقـة في الأجـزاء الحيويـة مـن المدينـة، متوجهة صوب بقعـة ما خضراء. مزَّقتهـا عذابـات أخلاقيـة. أخفـت وجههـا بوشـاح، وكانـت الزهرة تدغدغ شـفتها برقة، ويـتردد صدى هذه

الدغدغات كهمسة شباب انقضى على نحو بائس، كشبح شخص وحيد، كقبلة تخلص منها صاحبها بوطأها بالقدم... تقف عند التل وتخفض وشاحها وتتضرع قائلة: «بددها... بددها في الجهات الأربعة! اقض عليها! اقض على هذه البتلات اللعينة!» توقفت الرياح عن الهبوب كما لو أنها تكيدها. لكن حينها طارت نحلة قرب منزل صيفي، وتوجهت صوب الزهرة وبدأت تخالط امرأة بائسة في عقدها الثامن. هرعت الخالة راكضة صوب المنزل وقد أمرت الخادمة ألا تدع أحدًا يدخل إليها، وجلست أمام المرآة تتحسس وجهها الأسطوري المزين بزهرة والذي كان يتورم أمام عينيها بسبب لدغة النحل ويتحول دون شك إلى نبتة استوائية. يا للهلع! التفكير في انتزاع الزهرة ببساطة كان أمرًا خطيرًا. إنه ثؤلول على أي حال! وفجأة تسمم بالدم!»

كِان فانيا[1] بابيتشيف يجيد فعل كل شيء بمهارة؛ ينظم القصائد ويؤلف المسرحيات الموسيقية، ويرسم بمهارة، وقد

---

(١) تدليل إيفان.

استطاع فعل العديد من الأشياء، حتى إنه ابتكر رقصة صممها خصيصًا للاستفادة من ميزاته الخارجية: امتلاء الجسد والكسل. كان أخرق كما هو الحال مع الكثير من الشخصيات الرائعة في فترة صباها. أسمى الرقصة: «الإبريق الصغير». انهمك في بيع ثعابين ورقية وصفارات ومصابيح يدوية، وكان الصبية يحسدونه على شجاعته ومجده. كانوا يسمونه في الفناء «الميكانيكي».

فيما بعد أنهى إيفان بابيتشيف الدراسة بمعهد البوليتكنيك (متعدد التخصصات) قسم ميكانيكا في ذلك العام الذي أُعدم فيه أخوه رومان. عمل إيفان مهندسًا بمدينة نيكولايف بالقرب من أوديسا بمصنع نافال، واستمر كذلك حتى بداية الحرب الأوروبية (الحرب العالمية الأولى).

ثم...

-٢-

ولكن هل كان في أي وقت مهندسًا حقًا؟

في ذلك العام الذي كان الـ«ربع روبل» يُشيَّد فيه، عمل إيفان بمهنة لا تلقى احترامًا كبيرًا، ويعتبرها أي مهندس مهنة شائنة.

تصوروا أنه كان يرسم بورتريهات لمن يود من رواد الحانات ويؤلف بعض الوصلات الارتجالية حول الموضوعات التي يقدمونها إليه ويقرأ الطالع من خطوط اليد ويعرض قوة ذاكرته بتكرار خمسمائة كلمة يقرأونها عليه دون توقف!

أحيانًا كان يُخرج أوراق اللعب من صدره ويبدو كغشاش بلعب الورق ويكشف عن بعض الحيل.

دعوه إلى طاولتهم. جلس معهم، وحينها بدأ نشاطه الرئيس: انخرط في عظاته.

ولكن عما تحدَّث؟

- نحن أفراد الإنسانية الذين وصلنا إلى الحد الأخير ندق الرخام بإبريق وكأنه خُف. أتوجه إليكم أيتها الشخصيات القوية التي قررت أن تعيش لهواها؛ تعيش بأنانية وعناد. أتوجه إليكم بوصفكم أذكى الناس وطليعتهم بالنسبة لي. اسمعوني أيها المتقدمون! ثمة عصر ينتهي. ثمة موجة تضرب الصخور... ثمة موجة تتلألأ والزبد يلمع. ماذا تريدون؟ ماذا؟ أتختفي وتنعدم قطرات الماء الصغيرة بالغليان؟ لا يا

أصدقائي. لا يجب أن تهلكوا بهذه الطريقة. لا، تعالوا إليَّ وسأعلمكم.

أصغى إليه المستمعون ببعض الاحترام ولكن بقدر قليل منه. رغم ذلك سانده الذين من وافقوه قائلين: «صحيح!» وصفقوا له. اختفى فجأة، وكان ينهي وصلته في كل مرة بنفس الرباعية:

لست دجالا ألمانيًا
لست مخادعًا يا ناس
أنا ساحر سوفيتي متواضع
أنا ساحر معاصر

- الأبواب تُغلق، أتسمعون صوت المصاريع؟ لا تمزقوا أنفسكم وتحاولون تجاوز العتبة. توقفوا! في التوقف فخر. كونوا فخورين. أنا قائدكم، أنا أمير المبتذلين. أقول لمن يغني ويبكي ويلطخ أنفه على الطاولة عندما تكون الجعة قد نفدت ولم يقدموا المزيد منها: مكانك هنا بجانبي. تعالوا إليَّ أيها المثقلون بالحزن والأغاني. أنت يا من تقتل بسبب الغيرة، وأنت يا من تعقد عقدتك لتشنق نفسك: أدعوكم يا أبناء هذا القرن

المحتضر، تعالوا أيها المبتذلون والحالمون، يا آباء
الأسر الذين يرعون بناتهم، تعالوا أيها البرجوازيون
الصغار الشرفاء المخلصون للتقاليد والخاضعون
لمعايير الشرف والواجب والحب، يا من تخشون
سفك الدماء والفوضى، يا جنودي وجنرالاتي الأعزاء.
دعونا نتحرك. إلى أين؟ سوف أرشدكم.

كان يحب تناول سرطانات البحر، وكانت بقاياها تتهاوى من يديه بعد معركة شرسة. كان قذرًا. يشبه قميصه منشفة تنظيف بحانة، وكان دائمًا مفتوحًا عند الصدر. بالإضافة إلى ذلك كان يحدث أحيانًا أن تبدو أكمامه منشية[1]، لكن قذرة. إن كان بالإمكان الجمع بين القذارة والميل إلى التأنق، فلا بد أنه قد نجح في ذلك تمامًا. ولنأخذ قبعته مثالًا: زهرة مشبوكة بعروتها، بقيت في مكانها هناك حتى كادت أن تثمر تقريبًا! مثال آخر: أطراف سراويله والخيوط القليلة المتبقية في عُرى معطفه.

- أنا مفترس لسرطانات البحر. أنظروا: أنا لا أكلها، بل أفترسها كالكاهن. يا لها من سرطانات رائعة. تعلق

(١) كانوا قديمًا يغمسون الثياب أحيانًا في النشا لتكسبها صلابة واستقامة.

بالطحالب. ليس بالطحالب؟ أتقول تعلق بمجرد
بعض الخضرة؟ أليس الأمر سيان؟ دعونا نتفق على
أنها طحالب. هكذا يمكن أن نُشبِّه سرطان البحر
بسفينة تصعد من أعماق البحر. سرطانات رائعة حقًا!
من نهر كاما[١].

لعق قبضته، وبعد أن نظر إلى طرف كمه تخلص من بعض
بقايا السرطان عليه.

ولكن هل كان مهندسًا أبدًا؟ ألم يكذب؟ كيف لم يستطع
التلاؤم مع فكرة روح المهندس والاقتراب من الآلات والمعدن
والرسوم الفنية؟ يتعامل المرء معه بالأحرى بوصفه ممثلا أو
كاهنًا قد جُرِّد من كهنوته. حتى هو نفسه قد فهم أن المستمعين
لا يصدقونه، حتى إنه كان يتحدث وقدر من الهزل يلوح في ركني
عينيه.

لم يظهر في هذه الحانة أو في غيرها أي واعظ سمين. رغم
ذلك استطاع أن يصل إلى تلك المرحلة التي يسمح فيها لنفسه
بالصعود فوق طاولة... كان أخرق وغير مستعد بأي طريقة لمثل

(١) نهر رئيسي في روسيا، وهو أطول رافد من الناحية اليسرى لنهر الفولغا.

هذه الحركات البلهوانية، ورغم ذلك كان يصعد فوق الرؤوس، ممسكًا أوراق الشجر بيديه. تحطمت الزجاجات وتساقطت أوراق الشجر، واستقر على الطاولة بقدميه يحرك إبريقين فارغين كمن يرفع ثقلين وأخذ يصيح:

- ها أنا واقف فوق المرتفعات في مواجهة الجيش المحتشد. هلموا إليَّ! هلموا إليَّ! إن جيشي عظيم. تعالوا أيها الممثلون الصغار الحالمون بالمجد. تعالوا أيها العاشقون التعساء! تعالوا أيتها العوانس العجائز! تعالوا أيها المحاسبون! تعالوا أيها الطموحون! تعالوا أيها الحمقى والفرسان والجبناء! لقد وصل ملككم إيفان بابيتشيف. لم يحن الوقت بعد للتقدم، لكننا سرعان ما سوف نتقدم... سرعان! احتشد يا جيشي!

ثم ألقى الإبريق وانتزع الأكورديون من بين يدي أحدهم، وبسطه فوق معدته. اندلعت عاصفة بسبب الأنين الذي أصدره منهِ، وطارت المناديل الورقية أسفل سقف المكان...

- جعة! جعة! أعطونا المزيد من الجعة. اجلبوا برميل جعة! يجب أن نشرب نخب هذه الأحداث العظيمة.

لكنهم لم يجلبوا المزيد من الجعة، بل طردوا هذه الصحبة إلى الظلام، ومن خلفهم إيفان الواعظ، وكان أصغرهم وأثقلهم وأكثرهم مقاومة للخروج من المكان. اكتسب فجأة بفعل العناد والغضب ثقل وهمود برميل زيت معدني.

أطاحوا بقبعته أمام عينيه بطريقة شائنة.

سار في الشارع مترنحًا في كل جانب، كأنهم يُلقونه من يد للأخرى، تارة ينشد، وتارة يعوي بحزن، مزعجًا المارة. أنشد قائلا:

- أوفيليا! أوفيليا!

أنشد بهذه الكلمة وحسب، وحامت الكلمة في طريقه، وبدت كما لو أنها تطير وحدها في الشوارع، جادلة بسرعة، وهي تشكل رقم ٨ لامع.

في هذه الليلة زار أخاه الشهير. جلس كلاهما إلى الطاولة متواجهين. في المنتصف بينهما مصباح بأباجورة خضراء. جلس أندريه وكذلك فولوديا. نام الأخير ورأسه فوق الكتاب. أما إيفان فمضى صوب الأريكة سكيرًا. تعذب طويلا محاولا أن يضبط الأريكة أدناه كما يجذب المرء المقعد تحته. قال شقيقه:

- فانيا... أنت ثمل.

- أنا أكرهك. أنت وثن.

- ألا تخجل من نفسك يا فانيا؟ استلق... نم! سأجلب لك وسادة. اخلع قبعتك.

- أنت لا تصدق كلمة واحدة مما قلته لك. أنت مغفل يا أندريه. لا تقاطعني وإلا كسرت المصباح على رأس فولوديا. اصمت! لماذا لا تصدق وجود «أوفيليا»؟ لماذا لا تصدق أني اخترعت آلة مدهشة؟

- لم تخترع شيئًا يا فانيا! إنها مجرد فكرة استحوذت على عقلك. إنك حتى لا تجيد المزاح. ولكن ألا تخجل من نفسك؟ ها؟ تظن أني مغفل.... حسنًا، أي آلة هذه؟ هل يمكن أن توجد آلة مثلها؟ ولماذا تسميها «أوفيليا»؟ ولماذا ترتدي قبعة؟ هل أنت تاجر خردة أم سفير؟

صمت إيفان. ثم نهض، وكأنه استيقظ فجأة من سباته، واندفع صوبِ أخيه مُلوحًا بقبضته قائلا:

- ألا تصدقني؟ ألا تصدقني؟ يجدر بك أن تنهض يا أندريه عندما يحدثك قائد جيش يبلغ أفراده عدة

ملايين. أتجرؤ على تكذيبي؟ أتقول أنه لا وجود لآلة كهذه؟ أعدك يا أندريه أنك سوف تموت بسبب هذه الآلة.

- لا تثر ضجيجًا. سوف توقظ فولوديا.

- سأبصق على فتاك فولوديا هذا. أعرف... أعرف إلام تخطط؛ تريد أن تزوج ابنتي لفولوديا. تريد أن تُنتج سلالة جديدة. ابنتي ليست حاضن. لن تنالها. لن أعطيها لفولوديا. سوف أخنقها بيديّ هاتين.

توقف، ولاح في زاوية عينيه بعض الهزل، وبعد أن طوى يديه داخل جيبيه، وبدا كما لو أنه قد رفع بيديه باطني جيبي السروال، قال بلهجة شديدة الحدة:

- أنت مخطئ يا أخي الأصغر. أنت تذري الرماد في العيون. آآه يا عزيزي. أتظن أنك تحب فولوديا لأنه إنسان جديد؟ محال يا أندريوشا... محال! الأمر ليس كذلك، بل شيء آخر تمامًا.

سأل أندريه بغضب:

- وما هو إذن؟

- الأمر ببساطة أنك تهرم يا أندريوشا، وأنك في حاجة إلى ابن. كل ما في الأمر هو أنك تغذِّي مشاعر الأبوة بداخلك. الأسرة أبدية يا أندريه! أما عملية التعبير رمزيًا عن عالم جديد في صورة شاب بالكاد يمكن وصفه بالروعة، أمر غير موجود إلا في عالم كرة القدم. هذا هراء...

رفع فولوديا رأسه. صاح إيفان:

- مرحبًا يا إديسون العصر الجديد. مرحى!

وانحنى مُحييًا إياه بتكلف. نظر إليه فولوديا بصمت. قهقه إيفان قائلا:

- ما الأمر يا إديسون؟ ألا تصدق وجود «أوفيليا»؟

قال فولوديا متثائبًا:

- يجب أن يضعوك بمصحة كاناتشيكوفا يا إيفان بتروفيتش.

أطلق أندريه صوتًا كصهيل قصير. حينها رمى الواعظ قبعته على الأرض وصاح:

- وغد!

وبعد وقفة أكمل قائلا:

- أتسمح له بذلك يا أندريه؟ لماذا تسمح لهذا الذي تبنيته أن يهين أخاك؟

حينها لم يعد إيفان يرى عيني أخيه، لم يعد يرى سوى بريق عدستي نظارته. قال أندريه:

- إيفان! رجاءً لا تأتني مجددًا. أنت لست مجنونًا، بل بهيمة.

-٣-

دارت الأحاديث عن الواعظ الجديد.

مرقت الإشاعة من الحانات إلى الشقق، وتسللت عبر المسارات المظلمة صوب المطابخ العامة[1]. تُدوِّي الإشاعة في

---

(١) إحدى أشهر ظواهر العصر السوفييتي الاجتماعية هي الشقق المشتركة، حيث كانت السلطة تُسكن مجموعات مختلفة من الأفراد في شقق مشتركة، وبالتالي يصبح المطبخ هو محل اجتماع تلك الأفراد في عدة أوقات باليوم.

ساعة الاغتسال الصباحية، في ساعة إشعال وابور الجاز، حين ينخرط البعض في مراقبة اللبن لئلا يفور، ويترك البعض الآخر أجسادهم تحت رذاذ الصنبور أثناء الاستحمام.

اخترقت الإشاعة المؤسسات والمنتجعات والأسواق.

اختُلِقت قصة عن كيف جاء مواطن مجهول إلى حفل زفاف أحد محصلي البنوك بحي ياكيمانكا (ذكروا في التفاصيل أنه كان يرتدي قبعة، رث المنظر، مشبوه، لا يمكن أن يكون سوى إيفان بابيتشيف). وما إن لاح أمام الجميع قبل أن ينخرطوا في الوليمة، حتى طلب أن يولوه انتباههم لكي يلقي خطبة إلى العريس والعروس. قال:

- من غير الضروري أن يحب كلاكما الآخر. من غير الضروري كذلك أن تتحدا. أيها العريس، فلتترك عروسك! تُرى أي ثمرة سيجلبها حبك إليك؟ سوف تأتي بعدوك إلى هذا العالم وسيفترسك.

انخرط العريس في الشجار وانهارت العروس على الأرض. تفرق المدعوون شاعرين باستياء شديد، وحينها بدا كما لو أن الخمر الموجودة في كافة الزجاجات على الطاولة قد تحولت إلى ماء[1].

(١) الإشارة هنا إلى قصة إنجيلية ولكن يحدث العكس. بحسب رواية=

اختُلِقت أيضًا قصة أخرى مدهشة.

حكوا عن سيارة مرت بمكان صاخب للغاية (البعض قالوا أنها مرت بشارع نيجلينيا قرابة جسر كوزنيتسكي، بينما قال آخرون أنه شارع تفيرسكايا قرابة دير ستراسنوي، وكان بالسيارة مواطن جامد الوجه، ممتلئ الجسد، أحمر الوجنتين، وثمة حقيبة على ركبتيه.

حكوا عن كيف خرج من وسط الحشود الموجودة على الرصيف أخوه إيفان؛ هذه الشخصية الشهيرة. عندما رآه داخل السيارة، اعترض طريقها، ولوَّح بيديه كخيال مآته في الحقل، أو بالطريقة التي يوقفون بها جوادًا هاربًا خائفًا. استطاع السائق أن يُبطيء سرعته. أطلق إشاراته وواصل التحرك ببطء، لكن خيال المآتة لم يغادر الطريق. صاح بأعلى صوت:

- قف! قف أيها المفوض! قف يا خاطف الأطفال.

= إنجيل يوحنا ٢ حضر السيد المسيح حفل عرس وكان من المعتاد أن يشرب الحضور خمرًا في حفلات الزفاف اليهودية. فرغت الخمر من العرس فحوَّل السيد المسيح الماء الموجود بالمكان إلى خمر وغمر الفرح المكان. هنا يحدث العكس.

لـم يعد بوسـع السـائق سـوى أن يضغـط على مكابح السـيارة. توقـف سـير الحركـة. كادت الكثير مـن السـيارات أن ترتفع على أقدمها الخلفية كالجواد فوق مؤخرة السيارة التي تتقدمها، وبعد أن صرَّت الحافلـة توقفـت، وأصابهـا الاضطـراب وكانـت علـى وشك الخضوع ورفع عجلاتها التي تشبه قوائم الفيل والتراجع.

طلبـت الأذرع المرفوعـة للواقـف علـى الجسـر الصمـت، وتوقف الضجيج. تحدث قائلا:

- أخي، لماذا تستخدم سيارة في تحركاتك، بينما أسير أنا على قدميَّ؟ افتح الباب وأفسح لي مكانًا ودعني أدخل السـيارة. السـير علـى الأقدام لا يناسـبني أنـا أيضًا. أنت قائد، وأنا أيضًا كذلك.

في الحقيقـة هـرع صوبه الكثيرون من مختلـف النواحي عندما قـال تلك الكلمـات، وقفز البعض خارج الحافلـة، وترك البعض الآخـر أماكنهـم بالحانـات المجـاورة، بينمـا هرعـتْ مجموعـة ثالثةمـن ناحيـة الجـادة، أما ذلـك الأخ الجالـس بالسـيارة، وبعد أن انتصب بجسـده الضخم، وازداد حجمه بفعل توقف السيارة، رأى أمامه حاجزًا حيًا من الناس يعترض الطريق.

بدت نظرته المخيفة كما لو أنه سيخطو حالا ويتحرك بالسيارة من خلف ظهر السائق ويطأهم جميعًا بها بامتداد الشارع كله، كعمود يطأ ما أمامه...

أما إيفان فحملوه على أيديهم. اعتلى مشايعيه وأخذ يتمايل، يكاد يسقط ثم يتمالك نفسه ثانية، وتراجعت قبعته فوق قذال رأسه، ولاحت جبهة كبيرة واضحة لإنسان منهك.

جذبه أخوه أندريه إلى الأسفل وشد سرواله بيديه صوب معدته، وألقى به إلى الشرطي[1] وقال له:

- إذهب به إلى لجنة أمن الدولة (ГПУ)

ما إن ذكر هذا المصطلح السحري حتى أفاق الجميع من سباتهم وانطلقوا بعيدًا. لمعت الإبر، ووضعت القوابس الكهربائية وأُغلِقت الأبواب، وكافة الأنشطة التي بدأت قبل هذا الفتور وصلت إلى محطتها الأخيرة.

تم القبض على إيفان وسُجِن عشرة أيام.

عندما أطلقوا سراحه سأله رفاق الشرب عما إن كان أخوه هو

---

(١) في الأصل كتب رجل الميليتسيا، وهو اللقب الذي كان يُسمى به رجل الشرطة أثناء الحقبة السوفيتية.

الذي تسبب في القبض عليه فعلا في الشارع وسط هذه الظروف المدهشة أم لا. قهقه قائلا:

- هذا كذب... أسطورة. ببساطة قبضوا عليَّ داخل إحدى الحانات. أظن أنهم كانوا يراقبونني قبلها بالفعل بفترة طويلة. رغم ذلك من الجيد أنهم لا يزالون يؤلفون الأساطير حتى الآن. نمرّ الآن بنهاية عصر، فترة انتقالية، وبالتالي تطلق هذه الفترة أساطيرها وحكاياتها. كم أنا سعيد بأني سأكون بطل إحدى هذه الحكايات! ثمة أسطورة أخرى عن آلة تُدعى «أوفيليا»... سينقضي هذا العصر واسمي يتردد على الشفاه. إن جهودي مُوجَّهة صوب تحقيق ذلك.

أطلقوا سراحه بعد أن هددوه بالنفي.

بأي تهمة استطاعوا أن يتهموه في لجنة أمن الدولة؟

سأله المحقق:

- أتدعي نفسك ملكًا[1]؟

---

(١) يمكن للقاريء أن يلاحظ المحاكاة الساخرة لمشهد محاكمة المسيح من قبل الحاكم الروماني بيلاطس حسب الرواية الإنجيلية، حيث =

- نعم، ملك المبتذلين.

- ماذا يعني ذلك؟

- أنا - كما ترون - أفتح أعين فئة كبيرة من الناس.

- على ماذا؟

- لا بد أن يفهموا حقيقة بليتهم.

- قلت: «فئة كبيرة من الناس». إلام تشير بهذا المصطلح؟

- إلى جميع أولئك الذين يُطلق عليهم «الانحطاطيون». أشير إلى أصحاب الحالات المزاجية الانحطاطية. اسمح لي، سأوضح لك الأمر تفصيلا.

- أكون شاكرًا لك.

- ثمة مجموعة كاملة من المشاعر الإنسانية تبدو لي عُرضة للزوال.

- أعطني مثالا.

- مشاعر الشفقة واللطف والفخر والغيرة والحب.

= يبدأ استجوابه بنفس السؤال تقريبًا، حيث تشير المحاكاة إلى مدى تقدير إيفان لنفسه.

باختصار: كافة المشاعر التي تألف منها إنسان هذا العصر الآيل إلى الزوال. سيُنتج عصر الاشتراكية بدلا من هذه المشاعر القديمة سلسلة جديدة من حالات النفس الإنسانية.

- صحيح.

- أرى أنك لا تفهمني بصورة صحيحة. الشيوعي الذي لدغته ثعابين الغيرة يتعرض للاضطهادات. كذلك يتعرض لها أيضًا الشيوعي المشفق. عشبة الشفقة وسحلية الكبرياء وثعبان الغيرة... يجب طرد مثل هذه النباتات والحيوانات من حياة الإنسان الجديد.

أرجو أن تعذرني، فأنا أتحدث بطريقة تصويرية بعض الشيء. هل يبدو لك حديثي منمقًا؟ ألا يصعب عليك؟ شكرًا لك. ماءً؟ لا، لا أريد ماءً. أحب أن أتحدث بطريقة جميلة. نحن نعرف أن مقبرة شاب شيوعي منتحر تُزيَّن بالزهور ولعنات رفاقه على السواء. يقول إنسان العالم الجديد: الانتحار فعل متفسخ، بينما كان إنسان العالم القديم يقول: كان عليه أن ينتحر لينقذ شرفه. من هذا

المثال يتبين لنا أن الإنسان الجديد سيُعوِّد نفسه على احتقار المشاعر القديمة التي كان الشعراء وعروس شعر التاريخ نفسها يمجدونها. حسنًا... أريد أن أتولى أمر العرض الاستعراضي الأخير لهذه المشاعر.

- أهذه ما تسميها مؤامرة المشاعر؟

- نعم، هذه هي مؤامرة المشاعر التي أترأسها.

- استمر.

- أريد أن أجمع حولي جماعة معينة. أتفهمني؟ بإمكاننا أن نفترض أن المشاعر القديمة كانت رائعة. لدينا أمثلة عن الحب العظيم، ولنقل مثلا الحب المُوجَّه للمرأة أو الوطن، وأمثلة أخرى كثيرة. فلتعترف بأن بعضًا من هذه الذكريات لا يزال يعتمل بداخلك حتى الآن. أليس كذلك؟ لذا أريد أن... تعرف بالطبع أننا قد نجد مصباحًا كهربائيًا قد انطفأ فجأة. تقول «قد انطفأ». إن رججت هذا المصباح المنطفئ تجده قد عاود الاشتعال مجددًا لبرهة قصيرة. ثمة عملية تلف

تحدث داخل المصباح. تتمزق خيوطه التنجستينية[1]، وتعود الحياة للمصباح للحظات بسبب تلامس بقايا هذه الخيوط. قصيرة هي حياتها، مليئة بالتوتر، محكوم عليها بالفشل بوضوح، حمى ودفء شديد الوضوح ولمعان، ثم ظلام ولا تعود الحياة، وفي الظلام لا يصدر سوى صوت الخيوط المحترقة الميتة. هل تفهمني؟ لمعان قصير رائع!

أود أن أبعث الرعشة...

أود أن أبعث الرعشة في قلب هذا العصر المنطفيء. أود أن أبعثها في المصباح - القلب، حتى تتلامس البقايا...

حتى أثير لمعانًا لحظيًا رائعًا...

أريد أن أجد ممثلين من هنا؛ مما تسمونه العالم القديم. إني أضع هذه المشاعر في اعتباري: الغيرة - حب المرأة - الطموح. أريد أن أجد أحمق مغفلا

---

(١) نسبة إلى التنجستن وهو عنصر كيميائي ويستخدم في صناعة الأسلاك المتوهجة في المصابيح الكهربائية.

حقيقيًا لأريك إياه قائلا: يا رفاق، هذا ممثل لتلك الحالة الإنسانية التي تسمى «حماقة».

... شخصيات كثيرة قدمت كوميديا العالم القديم. يُسدل الستار. لا بد الآن للشخصيات المسرحية أن تركض صوب مقدمة خشبة المسرح وتنشد الكوبليهات الأخيرة. أريد أن أكون بالمنتصف بينهم وبين المتفرجين بالصالة. سوف أقود الجوقة الموسيقية، وسأكون آخر من يغادر المكان.

... تشرفت بأن تم اختياري للقيام بالاستعراض الأخير للشهوات الإنسانية القديمة. إن التاريخ يتتبعنا من خلال شقوق العين بالقناع بنظرة متلألئة. أريد أن أريه: هذا هو العاشق، وهذا هو الطموح. هذا هو الخائن وهذا هو الشجاع المتهور، هذا صديق مخلص وهذا ابن فاسق... لديهم جميعًا مشاعر عظيمة، واليوم نعتبرها تافهة ومبتذلة. لندع هذه المشاعر تكشف عن نفسها للمرة الأخيرة قبل أن تتلاشى، وقبل أن تتعرض للسخرية.

أسمع حوارًا غريبًا؛ يتحدثون عن شفرة الحلاقة، يتحدثون عن مجنون شق عنقه. ثمة اسم نسائي يرفرف هناك. لم يمت المجنون، فقد خاطوا له جرح عنقه، لكنه شق الجرح ذاته مجددًا. من هو؟ أرني إياه، فهو ضروري لي. أنا أبحث عنه. أبحثُ عنها أيضًا، تلك الشيطانة وعن ذلك العاشق التراجيدي. لكن أين يمكنني البحث عنه؟ بمصحة سكليفوسوفسكي؟ وماذا عنها؟ من هي؟ أهي موظفة مكتبية؟ أم تراها فتاة من النيب[1]؟

يصعب عليَّ جدًا أن أجد أبطالا.

ما من أبطال...

أُطل من نوافذ الآخرين، وأصعد سلالمهم. بين الحين والآخر أتتبع ابتسامة أحدهم، وأقفز كعالم طبيعيات يتتبع فراشة! أود أن أصيح قائلا «توقفوا!» ما الذي يُلوِّن هذه الشجيرة؟ من أين انطلقت فراشة ابتسامتك الرقيقة المندفعة؟ تُرى ما الشعور الذي تعبر

(١) راجع حاشية رقم ١٩.

عنه تلك الشجيرة؟ أهو نسرين الحزن الوردي أم زبيب الكبرياء التافه؟ توقفوا! أنتم في حاجة إليَّ.

أريد أن أحشد جمعًا كبيرًا حولي، ليكون بإمكاني الاختيار، وأختار الأفضل والأنصع من وسطهم، وأُكوِّن مجموعة مدهشة؛ مجموعة من المشاعر.

نعم... إنها مؤامرة، انتفاضة عالمية، استعراض عالمي للمشاعر.

فلنفترض أني سأجد في مكان ما شخصًا طموحًا تمامًا بنسبة مئة في المئة، سأقول له: «اكشف عن نفسك! أظهر لمن يُمسكون بك ماذا يعني أن تكون طموحًا. أدّ فعلا يقولون عنه «يا له من طموح خسيس!» أو «يا لقوة الطموح!». أو دعنا نفترض أني سأكون سعيد الحظ وأجد إنسانًا يمثل نموذجًا مثاليًا للطيش. سأقول له أيضًا: «اكشف عن نفسك، وأظهر قوة الطيش ليضرب الناس كفوفهم عجبًا.»

عبقرية المشاعر تسيطر على النفوس. تتحكم عبقرية الكبرياء في نفس، بينما تتحكم عبقرية الشفقة

في نفس أخرى. أود أن أجمع هذه الشياطين وأطلقها في الحلبة.

- حسنًا... هل استطعت إذن أن تجد شخصًا؟

- ناديت وبحثت طويلا. الأمر شديد الصعوبة. ربما هم لا يفهمونني، لكنني وجدت واحدًا.

- من هو تحديدًا؟

- ما الذي يثير انتباهك: الشعور أم حامله؟

- كلاهما.

- نيكولاي كافاليروف: الحاسد.

-٤-

ابتعدوا عن المرأة.

كلا المهرجين يسيران سويًا. واحد منهما، أقصر وأسمن، سبق الآخر. كانت هذه إحدى سمات إيفان بابيتشيف.

أثناء تحدثه مع مرافقه، كان يجد نفسه مجبراً على التلفت باستمرار. إن حدث ووجد نفسه يقول عبارة طويلة (ولم تكن

عباراته أبدًا قصيرة) والتفت وجهه أكثر من مرة تجاه مرافقه أثناء الحديث، كان يصطدم حينها بالمارة. حينها كان ينتزع قبعته فورًا من على رأسه وينحني مُقدِّمًا اعتذارات طنانة. كان إنسانًا مجاملا، ولم تكن ابتسامته الدمثة تفارقه أبدًا.

عرج النهار على المتجر الصغير. ها هو غجري يرتدي صدرية زرقاء، بوجنتين مخضبتين ولحية، وقد حمل فوق كتفيه وعاءً نحاسيًا نظيفًا. ابتعد ضوء الشمس عن كتفي الغجري. كان ظهر الإناء مضيئًا غير نافذ. خطا الغجري ببطء، بينما يهتز الإناء برفق، وينعكس ضوء الشمس على ظهر الإناء.

تابعه العابران بأعينهما.

غرب الإناء كالشمس. انتهى النهار.

حينها توجه العابران إلى الحانة.

حكى كافاليروف لإيفان عن كيف طرده شخص مهم من منزله. لم يقل اسمه. حكى له إيفان عن أن شخصية مهمة طردته هو الآخر من منزلها.

- وأنت تعرفه قطعًا. الجميع يعرفونه. إنه شقيقي أندريه بتروفيتش بابيتشيف. هل سمعت عنه؟

احمر وجه كافاليروف، وخفض عينيه ولم ينطق بكلمة. قال إيفان وقد توهج وجهه:

- يبدو من ذلك أن مصيرنا متشابه، وبالتالي علينا أن نكون أصدقاء. بالإضافة إلى ذلك يعجبني اسم عائلتك «كافاليروف»، اسم عظيم وعاثر الحظ في الآن ذاته.

فكر كافاليروف في نفسه قائلا: «أنا أيضًا عظيم وعاثر الحظ في الآن ذاته». صاح إيفان:

- إنها جعة رائعة. يقول البولنديون: لديها عينان بلون الجعة. أليس ذلك حسنًا؟ ولكن أهم ما في الأمر هو أن هذه الشخصية المهمة؛ أقصد أخي، قد سرق ابنتي مني... سوف أنتقم منه. سرق ابنتي مني، لكنه لم يسرقها حرفيًا بالطبع، لا تزيد من حجم عينيك هكذا يا كافاليروف. لن يضيرك شيء إن صغَّرت حجم أنفك قليلا. بأنف سميكة كهذه سيتوجب عليك أن تكون شهيرًا كبطل، وذلك لتنعم بقدر من السعادة كشخص بسيط متواضع الثقافة. لقد أثَّر عليها. أيمكن أن يُحاكم امريء بتهمة كهذه؟ هل أذهب إلى المدعي العام؟ ها؟

لقد تَرَكتْني. لكني لا أُلقي بالذنب على كاهل أندريه بقدر ما ألقيه فوق كاهل ذلك الخنزير الذي يعيش معه.

وحكى عن فولوديا...

من فرط الاضطراب تحركت أصابع قدمي كافاليروف.

- هذا الصبي أفسد حياتي. ليتهم يهشمون كليتيه أثناء مباراة كرة قدم! يطيعه أندريه في كل شيء. هذا الصبي نموذج للإنسان الجديد كما ترى! قال الصبي أن فاليا غير شريفة لأني - أنا الأب - مجنون، بالإضافة إلى أني - أنا الخنزير على حد وصفه - أُصيبها بالجنون بطريقة منهجية. خنزير! أقنعاها سويًا، وهربت فعلا. آوَتْها إحدى صديقاتها...

لعنتُ صديقتها هذه. تمنيت لها أن يحل كل من مريئها ومستقيمها محل بعضهما! هل يمكنك أن تتصور مشهدًا كهذا؟ أدمغة عنيدة حقًا.

...كانت المرأة أفضل وأروع وأنقى بريقًا لثقافتنا. انخرطت في البحث عن جوهر الأنثى... الجوهر الذي اتحدتْ فيه كافة السمات الأنثوية. انخرطتُ في البحث

عن بذرة السمات الأنثوية. السمة الأنثوية كانت مجد قرننا القديم. أردتُ أن أبرز ما هو أنثوي. سنموت يا كافاليروف. أردتُ أن أحمل الأنثى فوق رأسي كمشعل. كنت أظن أن المرأة سوف تنطفئ بانطفاء عصرنا هذا. ثمة آلاف من الأعوام تمتد أمامنا كالهاوية. في هذه الهاوية تتمرغ آلات وأجزاء من حديد الصلب وألواح الصفيح والبراغي والنوابض.... هاوية مظلمة كئيبة. في هذه الهاوية يلمع صوفان[1] وفطريات فسفورية... عفن. هذه هي مشاعرنا. هذا كل ما تبقى من مشاعرنا؛ من زهور أنفسنا. سيأتي الإنسان الجديد إلى هذه الهاوية، ويتحسس طريقه ويدخلها، وينتقي منها ما يحتاج إليه؛ ينتقي منها ما يفيده من أجزاء تلك الآلات كالبراغي، ويطأ الصوفان ويميته. كنت أحلم بأن أجد المرأة التي ستزهر في الهاوية بشعور غير مسبوق، كإزهار زهرة السرخس الرائع، وذلك حتى يجد الإنسان الجديد الذي أتى لسرقة حديدنا نفسه خائفًا ويرد يده ويغلق عينيه وقد أعماه ضوء ما بدا له صوفان.

---

(١) مادّة شبيهة بالإِسفَنْج تُستَخرج مِن فُطْر الصُّوفان مُهيّأة للاشْتعال بسُهولة.

... لقد وجدت هذا الكائن؛ وجدته بالقرب مني؛ إنها فاليا. كنت أظن أن فاليا سوف تشرق على هذا القرن المحتضر، وتنير طريقه صوب المقبرة العظيمة. لكني كنت مخطئًا... لقد هربتْ بعيدًا. لقد تخلصت من رأس هذا القرن القديم. ظننت أن المرأة لنا، وأن اللطف والحب لنا وحدنا، لكن اتضح أني كنت مخطئًا. ها أنا أطوف - أنا الحالم الأخير بالأرض - بأطراف الهاوية كخفاش جريح.

فكر كافاليروف في نفسه قائلا: «سوف أنتزع فاليا منهما». أراد أن يقول إنه كان شاهدًا على ذلك الحادث الذي وقع بالزقاق حيث السياج المغطى بالزهور. لكن لسبب ما أحجم عن فعل ذلك.

أكمل إيفان قائلا:

- إن مصيرنا متشابه. أعطني يدك. هكذا أحييك. سعيد جدًا بلقائك أيها الشاب. فلنقرع كأسينا نخب ذلك. تقول أنهم طردوك يا كافاليروف؟ احك لي... احك لي، رغم أنك حكيت لي بالفعل. أتقول أن شخصية

مهمة جدًا قد طردتك شر طردة؟ ألا تريد أن تخبرني باسمها؟ حسنًا... هل تكره هذه الشخصية بشدة؟

يهز كافاليروف رأسه موافقًا.

- آآه، كم يبدو لي كل شيء واضحًا يا عزيزي! يبدو أنك تعاملت بوقاحة مع إنسان ذي سلطة كما أفهم. لا تقاطعني، لقد وجدت نفسك تكره شخصية بارزة. يبدو لك بالطبع أنه قد أساء إليك. لا تقاطعني! اشرب! أنت متيقن من أنه يحول بينك وبين الظهور، وأنه قد استولى على حقوقك وأنه يهيمن عليك في مجال ما محدد ترى أنك بحاجة إلى فرض هيمنتك عليه. تشتعل غضبًا...

تبحر الفرقة الموسيقية وسط الضباب، وثمة وجه شاحب لعازف كمان يستند إلى كمانه. يشبه الكمان وجه صاحبه. كأن عازف الكمان هذا يرتدي سترة خشبية. أتسمع؟ الخشب ينشد. أتسمع صوت الخشب؟ يصدر الخشب في الأوركسترا أصواتًا مختلفة. ولكن كم يبدو عزفهم رديئًا! يا إلهي! كم يعزفون بطريقة سيئة!

توجه إلى الموسيقيين.

- أتظن أن لديك طبلا؟ هل ترى أن الطبل يؤدي دوره؟
لا، إنه رب الموسيقى من يقرع بقبضته عليك....

يا صديقي، الحسد يفترسنا. نحن نحسد العصر القادم. إن شئت هاك حسد الشيخوخة. هنا جسد أول جيل بشري مسن. فلنتحدث عن الحسد. أعطنا المزيد من الجعة...

جلسا قرابة نافذة واسعة.

تساقط المطر ثانية. حل المساء. لمعت المدينة كما لو أنها مقتطعة من فحم كارديف[1]، وكان الناس يختلسون النظر من النوافذ المطلة على شارع ساموتيوكا.

- نعم، إنه الحسد. هنا يجب أن تجري أحداث المسرحية؛ واحدة من أفخم المسرحيات التي تُعرض على خشبة التاريخ. إنها واحدة من تلك المسرحيات التي تثير هتاف وبهجة وأسف وغضب الإنسانية. أنت مكلف

---

(١) عاصمة ويلز واشتهرت كميناء رئيسي لتجارة الفحم منذ القرن التاسع عشر.

بمهمة تاريخية دون حتى أن تدري. إن جاز التعبير أنت تخثر دموي؛ تخثر دموي من الحسد الخاص بهذا العصر الآيل للزوال. هذا العصر يحسد ما سيأتي.

سأل كافاليروف:

- وماذا عليَّ أن أفعل؟

- يا عزيزي عليك أن تتصالح مع الوضع هنا أو... أو أن تصنع فضيحة. أو ربما يتوجب عليك أن ترحل بعد أن تثير ضجيجًا، تصفق الباب بعنف كما يقولون. المهم هنا هو الآتي: ارحل بعد أن تثير ضجيجًا حتى تترك ندبة على فك التاريخ. فلتلمع عليك اللعنة! في كل الأحوال لن يسمحوا لك بالدخول. لا تستسلم دون معركة... أريد أن أحكي لك عن حادثة جرت معي في طفولتي...

أقاموا ذات يوم حفلة راقصة. قدَّم الأطفال مسرحية ورقصة باليه على خشبة مسرح نصبوه لهم خصيصًا في قاعة الاستقبال. وظهرت هذه الفتاة، أيمكنك تصورها؟ فتاة مثالية في الثانية عشر نحيلة الساقين، ترتدي فستانًا

قصيرًا، كل شيء فيه وردي وناعم شديد الأناقة. وكما يمكنك أن تتصور، كان الفستان مليئًا بالكشكشات والالتواءات، يشبه تلك الزهرة المعروفة باسم «حنك السبع»، جميلة، فخورة، مدللة، تهز خصلات شعرها. اهتاجت الفتاة بالحفلة الراقصة. فعلت كل ما شاءت وكل ما أبهجها، وصدر عنها كل شيء، وانجذب الجميع إليها. رقصت أفضل من الجميع بالحفل، وغنت وقفزت وابتكرت ألعابًا. قُدِّمت إليها أفضل الهدايا والحلوى والزهور والبرتقال والمدائح... كنت وقتها قد بلغت الثالثة عشرة، وكنت طالبًا بالجيمنازيا. صدتني عنها تمامًا. كنت قد ألفت المسرات لكن التدليل أفسدني. كنت المهيمن على فصلي وصاحب الرقم القياسي. لم أستطع تحمل الأمر. أمسكت بالفتاة في الردهة وضربتها وتمزق وشاحها وطيَّر الريح خصلات شعرها وخدش وجهها الجميل. أمسكت بها من قذالها وصدمت وجهها عدة مرات بالعمود. في تلك اللحظة تحديدًا شعرت أني أحب تلك الفتاة أكثر من الحياة نفسها وأني أعبدها، وكرهتها بكل قوتي.

بعد أن مزقتُ خصلات شعرها المجعدة، ظننت أني أُلحِق بها الخزي وأقضي على اختيالها بنفسها وبريقها، وظننت أيضًا أني سأصلح الخطأ الذي ارتكبه الجميع. لكن لم يحدث أي من ذلك. كان الخزي من نصيبي أنا. طردوني. ظلوا يفكرون فيَّ يا عزيزي طوال المساء. بالرغم من أني قد أفسدت عليهم الحفل لكنهم ظلوا يتحدثون عني في كل مكان؛ في كل موضع تظهر فيه فتاة جميلة... هكذا اختبرت الحسد للمرة الأولى. مريعة هي حرقة الجسد. كم يصعب الحسد! يعتصر الحلق بالتشنجات ويكاد يقتلع العينين من محجرهما. عندما مزقت الفتاة - تلك الأضحية التي أمسكت بها - في الرواق، انهمرت الدموع من عينيّ وشعرت بالاختناق، وكان هذا كل شيء. بينما كنت أمزق ثيابها الفاتنة، مرتعدًا من ملامسة نسيجها الحريري، جززت على أسناني وشفتي بشدة. أنت تعرف بالطبع الحرير وملمسه، تعرف كيف تسبب ملامسته رجفة في العمود الفقري والجهاز العصبي بأكمله، وتعرف كيف يدفع ذلك المرء إلى سلوكيات غريبة. هكذا انتفضت كافة

قواي بداخلي دفاعًا عن تلك الفتاة الدنيئة. ندم وسم كامنان في الأجمات والسلال، نابعان من حقيقة أنها بدت في قاعة الاستقبال فاتنة وساذجة... نابعان من فستانها الوردي وهذا الحرير المحبب اللعين. لا أتذكر ما إن كنت قد أصدرتُ أي صيحات أثناء انتقامي أم لا. لا بد أني دمدمت «هذا انتقامي منك! لا تسيطري عليَّ، ولا تأخذي مني ما ينتمي إليَّ!»

هل أنصتَّ إليَّ بانتباه؟ أود أن أجري بعض المقارنات، واضعًا في اعتباري صراع العصور. ستبدو المقارنة لك للوهلة الأولى بالطبع تافهة، ولكني أتحدث عن الحسد. هل تفهمني؟

أنهت الفرقة الموسيقية عزفها. قال إيفان:

- حمدًا لله أنهم أنهوا عزفهم. أنظر إلى هذا التشيللو. خفَتَ بريقه بشدة بعد أن استُخدِم. عذَّبوه طويلا. يبدو بريقه الآن كما لو كان رطبًا؛ كما لو أنه منتعش تمامًا. عليَّ أن أسجل أفكاري يا كافاليروف. لا أقول أني أحفر كلماتي على الرخام، ولكن أليس ذلك صحيحًا؟

يا عزيزي، لقد كنا مُحطِّمين للأرقام القياسية من قبل، وقد أفسدنا التدليل أيضًا وتعودنا على الهيمنة هناك... هناك في مكاننا، ولكن أين هو مكاننا؟ إنه هناك في ذلك العصر المكفهر. كم هو جميل ذلك العالم الصاعد! آه... كيف يتوهج عيد لا يسمحون لنا بحضوره! كل شيء يأتي منه... من ذلك العصر الجديد. كل شيء ينجرف صوبه. سوف ينال أفضل الهدايا والمسرات. أحب هذا العالم الآتي صوبي أكثر من الحياة، وأنحني إليه وأكرهه بكل قوتي! أشعر بالاختناق وتنهمر الدموع من مقلتيَّ، لكني أريد أن أنشب أصابعي في ثيابه وأمزقه قائلا: لا تسيطر عليَّ، ولا تأخذ مني ما ينتمي إليَّ!

لا بد لكلينا أن ينتقم... ثمة آلاف مثلنا. يجب أن ننتقم. الأعداء ليسوا كطواحين الهواء دائمًا يا كافاليروف. أحيانًا يبدو أن ما أردت أن تظنه طواحين هواء هو عدوٌّ غازٍ يجلب معه الهلاك والموت. إنه عدوك حقيقي يا كافاليروف. انتقم منه! صدقني، لن ننصرف إلا بعد أن نثير ضجيجًا. سوف نرجُّ خيلاء هذا

العالَم الشاب. إن قماشة شخصياتنا ليست هينة، لقد كنا أحباء التاريخ!

فلتجبر نفسك على التحدث عن نفسك يا كافاليروف. الأمر واضح: كل شيء مآله إلى الهلاك، وكل شيء مُقدَّر وما من مخرج. سوف تهلك يا صاحب الأنف السميك. كل دقيقة تمر سوف تضاعف خزيك، وكل يوم يمر سوف يجعل عدوك الشاب يزداد ازدهارًا. الهلاك واضح، لذا فلتحاصر هلاكك وتزينه بالألعاب النارية، وتمزق ثياب من يمسك بخناقك، وتطلق وداعك حتى يستمر صداه لقرون.

فكر كافاليروف قائلا: «إنه يقرأ أفكاري!»

- ألم يسيئوا إليك؟ ألم يطردوك؟

قال كافاليروف بحرارة:

- أساءوا إليَّ إساءة مريعة. أذلوني طويلا.

- من أساء إليك؟ أهو واحد من مختاري العصر؟

أراد كافاليروف أن يصيح قائلا «أخوك هو من أساء إليَّ» لكنه صمت.

- أنت محظوظ لأنك لا تعرف وجه عدوك. لديك عدو حقيقي، وكذلك أنا.

- ماذا عليَّ أن أفعل؟

- أنت محظوظ. يمكنك أن تضم حسابك إلى حساب العصر الذي كان بمثابة أمٍّ لك.

- ماذا عليَّ أن أفعل؟

- اقتله! فلتجعل ذكراك ذكرى قاتل مأجور لهذا القرن. افترس عدوك على العتبة الفاصلة بين عصرين. إنه يتباهى. إنه هناك... إنه عبقري فعلا. إنه كيوبيد[1] يندفع صوب بوابة العالم الجديد حاملا لفيفة. يرفع أنفه تأففًا ولا يلاحظك. حطمه أثناء وداعك. إني أباركك، وسوف أحطم أنا أيضًا عدوي (ورفع كأسه). فلنشرب يا كافاليروف نخب «أوفيليا». إنها أداة انتقامي.

فتح كافاليروف فمه ليقول الأمر الرئيس: «لدينا عدو مشترك. إنكِ تبارك قتل أخيك» لكنه لم يقل كلمة لأن ثمة إنسانًا اقترب من طاولتهما طلب من إيفان أن يتبعه دون أن يسأل سؤالا واحدًا.

---

(١) إله الحب. في الميثولوجيا الرومانية هو ابن الإلهة فينوس.

تم القبض عليه، أما سبب ذلك فسنعرفه في الفصل القادم.

قال إيفان:

- إلى اللقاء يا عزيزي! إنهم يسوقونني إلى الجلجثة[1]. اذهب إلى ابنتي (وذكر له اسم الزقاق الذي ظل يلمع في ذاكرة كافاليروف لمدة طويلة) اذهب إلى هناك والق نظرة عليها وستدرك أنه طالما أن هذا الكائن قد خدعنا، لم يتبق لنا إذن سوى الانتقام.

أنهى شرب جعته وتقدم تلك الشخصية الغامضة بخطوة. في طريقه غمز لرواد المكان ونثر ابتساماته وألقى نظرة على فوهة الكلارينيت[2]، وعندما وصل إلى الباب التفت ممسكًا بقبعته بذراعه الممدودة وخطب قائلا:

لست دجالا ألمانيًا

لست مخادعًا يا ناس

أنا ساحر سوفيتي متواضع

أنا ساحر معاصر

---

(١) البقعة التي صُلِب فيها المسيح بحسب الرواية الإنجيلية.

(٢) آلة نفخ موسيقية.

-٥-

سأل فولوديا:

- ما الذي يضحكك؟ أتظن أني أريد النوم؟

- أنا لا أضحك، بل أسعل.

وما إن وصل فولوديا إلى المقعد حتى غفا مجددًا.

أُنهِك الشاب مبكرًا. أما هذا العجوز أندريه بابيتشيف فهو مارد. ظل يعمل طوال النهار وكذلك نصف فترة الليل. دق أندريه الطاولة بقبضته. ارتجت الأباجورة فوق المصباح تمامًا كغطاء البراد، لكن فولوديا انخرط في النوم رغم ذلك. ارتجت الأباجورة وتذكر أندريه: نظر جيمس واط[1] إلى غطاء البراد المرتج بفعل البخار. إنها أسطورة معروفة ولوحة شهيرة. اخترع جيمس واط المحرك البخاري. ما الذي تخترعه يا عزيزي جيمس واط؟ ما الآلة التي تخترعها يا فولوديا؟ ما هو سر الطبيعة الجديد الذي ستكتشفه أيها الإنسان الجديد؟

وهنا بدأ أندريه بابيتشيف يحاور نفسه. في أقصر فترة زمنية

(١) مهندس اسكتلندي اهتم بمسألة الطاقة التي يمكن الاستفادة منها من البخار كقوة محركة.

ممكنة كان قد ترك العمل ناظرًا إلى الشاب النائم وفكر في نفسه قائلا:

«أيمكن أن يكون إيفان محقًا؟ أيمكن أن يكون الأمر ببساطة أني شخص عادي محدود الثقافة، وشعورٌ أُسري يعيش بداخلي؟ ألأنه يقدرني ويعيش معي منذ أيام طفولته تعودت عليه ببساطة وأحببته كابن لي؟ أيمكن أن يكون هذا هو السبب وحسب؟ هل هو كذلك؟ وماذا إن كان غبيًا؟ لأجل ماذا إذن أجعل حياتي متمحورة حوله؟ لقد كنت محظوظًا. إن حياة الإنسان الجديد لا تزال بعيدة. أنا أؤمن بها، وأنا محظوظ. ها هو عالمي الجديد الرائع قد غفا بالقرب مني. العالم الجديد يعيش في منزلي. أنا لست مغرمًا به. هل أحتاج إلى ابن؟ إلى دعم؟ إلى مُغلق لجفنيَّ[1]؟ هذا ليس صحيحًا، لكني في حاجة إلى ذلك. لا أريد أن أموت على فراش مرتفع مستندًا إلى وسادات. أعرف أن الجماهير لا الأسرة هي التي ستتلقى أنفاسي الأخيرة. هراء! كما نتعهد هذا العالم الجديد بالرعاية كذلك أفعل معه. لقد قدَّرني بوصفي أمله الذي تحقق. سوف أطرده إن اكتشفت أني خُدِعت فيه؛ أقصد إن لم يكن إنسانًا جديدًا حقًا، ولم يكن متميزًا عني

---

(١) يقصد في حالة الوفاة.

تمامًا؛ فحياتي لا تزال عالقة بالعالم الجديد ولست قادرًا على التملص منها. سوف أطرده حينها فلست في حاجة إلى ابن. أنا لست أبًا، وهو ليس ابنًا، ونحن لا نُشكِّل أسرة. أنا من آمن به، وهو من برَّر هذا الإيمان.

نحن لا نُشكِّل أسرة، بل نحن الإنسانية.

ماذا يعني ذلك؟ أيعني ذلك أن علينا أن نقضي على الشعور الإنساني بالحب الأبوي؟ لماذا يحبني إذن وهو الإنسان الجديد؟ أيعني ذلك أن في العالم الجديد سوف تكون هناك أيضًا بذرة للحب بين الأب والابن؟ حينها سيكون لديَّ الحق لأبتهج، وسأكون محقًا إن أحببته كابن وإنسان جديد في الوقت ذاته. إيفان... إيفان، إن مؤامرتك تافهة. لن يكون مصير كافة المشاعر إلى الهلاك. عبثًا تشتعل غضبًا يا إيفان!»

منذ فترة طويلة للغاية ركض اثنان في ليلة مظلمة، منحدرين صوب الوادي، وزحفا على ركبهما في ضوء النجوم، وقد أخافا النجوم المتوارية بين الأجمات؛ مفوض وصبي. أنقذ الصبي المفوض. كان المفوض ضخمًا، بينما الصبي ضئيل الحجم. من رآهما كان ليفكر في نفسه قائلا: أحد الراكضين مارد، إن

سقط أرضًا، سيظن الرائي أن الصبي ليس سوى قبضة يده.

ظلا سويًا طوال الوقت.

عاش الصبي لدى المارد، ونمى وترعرع وأصبح واحدًا من شباب الكومسمول كما أصبح طالبًا. ولد في سكن عمال السكك الحديدية، وكان ابنًا لعامل في سبك المعادن.

أحبه الرفاق هناك، وأحبه البالغون. كان ينزعج أحيانًا من فكرة أن الجميع معجبون به، فقد كان ذلك يبدو له أحيانًا أمرًا خاطئًا وأنه لا يستحق ذلك. كان شعور الزمالة بداخله هو أقوى المشاعر. يشبه الأمر أن يهتم بإحداث نوع من التوازن ويحاول تصحيح وضع ما غير صحيح أَجَازَته الطبيعة في توزيع المواهب، وفي محاولته لفعل ذلك كان يهرع أحيانًا إلى بعض الحيل بهدف إصلاح انطباع ما عنه، بأن يخفض قدره، ويسرع إلى إطفاء بريقه.

من فرط إخلاصه واستعداده إلى التضحية بذاته شعر كما لو أنه يريد تعويض الذين أصابوا قدرًا أقل من النجاح من رفاقه بإظهار شعوره الحار بالصداقة، وذلك بأن يجد في كل واحد منهم سمات ومقدرات رائعة. دفع المجتمع من حوله رفاقه إلى منافسته. قال: سألت نفسي:

- لماذا يعرب الناس عن غضبهم أو استيائهم. ليس لدى هؤلاء الناس مفهوم عن الزمن. إنهم لا يعرفون هنا شيئًا عن التقنية. إن الزمن هو أيضًا مفهوم تقني. لو كان الجميع تقنيين، لتلاشت الضغينة واندثر حب الذات وكافة المشاعر السطحية. أتضحك؟ علينا أن نفهم طبيعة الزمن لنتحرر من هذه المشاعر السطحية. لنقل إن الشعور بالاستياء يستمر مثلا ساعة أو عامًا. فلنقل أن ثمة تصورات تكفي ليمتد الشعور بالاستياء لعام كامل. ولكن بمرور ألف عام لن تكون هذه التصورات قادرة على جمع شتات نفسها. إنهم لا يرون إذن سوى ثلاثة أو أربعة أقسام الساعة، ويثيرون هرجًا ومرجًا ويظل وجه الساعة الكامل خارج نطاق رؤيتهم. قُل لهم إن هناك وجهًا كاملا للساعة ولن يصدقوك.

- لماذا يتعلق الأمر إذن بالمشاعر السطحية وحسب؟ المشاعر السامية قصيرة الأمد هي الأخرى. ماذا عن النبل؟

- بوسعك أن ترى الأمر الآن. أنت تستمع لي. ثمة ما هو صحيح في النبل بالمعنى التقني. أراك لا تبتسم.

نعم... نعم، بل في حقيقة الأمر لا! يبدو أني تعثرت. أنت تربكني. لا، انتظر! الثورة كانت... كانت ماذا؟ كانت وحشية بالطبع. ولكن... ولكن ماذا كان هدف كل تلك الكراهية؟ هل كانت سَمِحة؟ كان ذلك حسنًا من منظور الزمن الكلي، أليس كذلك؟ كان علينا أن نشعر بالاستياء، لا على مدار جزئين من وجه الساعة وحسب، بل بامتداد وجه الساعة كله. حينها لن نجد فارقًا يُذكر بين الوحشية والسماحة. لن نجد لدينا سوى أمر واحد: الزمن. الحديد - كما يقولون - هو عَصب التاريخ. التاريخ والزمن شيء واحد، وشيئان في الآن ذاته. لا تضحك يا أندريه بتروفيتش. أقول أن شعور الإنسان الرئيس يجب أن يكون فهم الزمن.

قال أيضًا:

- سأقضي على كبرياء العالم البورجوازي. إنهم يهزأون بنا. يدمدم الشيوخ: أين هم مهندسوكم وجراحوكم وأساتذتكم ومخترعوكم الجدد؟ سوف أحشد مجموعة كبيرة من الرفاق يصل عددهم إلى مئة فرد. سوف نشكل اتحادًا يعمل على هزيمة العالم

البورجوازي. أتظن أني أتباهى؟ أنت لا تفهم شيئًا. أنا لا أتوهم شيئًا على الإطلاق. سنعمل كالوحوش وسترى بنفسك. سيأتون ويركعون أمامنا. ستنضم فاليا إلى هذا الاتحاد.

استيقظ وانفجر في الضحك قائلا:

- حلمت بأني كنت مع فاليا فوق السطح ننظر إلى القمر عبر التليسكوب.
- ماذا؟ أتقول تليسكوب؟
- وقلتُ لها «هنا بالأسفل بحر الأزمات» ثم سألتني: «بحر الفئران؟[1]»

في ربيع هذا العام رحل فولوديا لفترة قصيرة ليلتقي بأبيه في مدينة ميورم. كان الأب يعمل بورش صناعة القاطرات. انقضى يومان على هذا الفراق، وفي ليلة اليوم الثالث كان أندريه في طريق عودته إلى المنزل. عند منعطف الطريق أخفض السائق سرعته وأضاء النور، ورأى أندريه أحدهم مستلقيًا عند حائط.

---

(١) في الأصل الروسي ثمة تشابه بين الكلمتين في النطق، وبالتالي يمكن الخلط بينهما.

بعث فيه هذا الإنسان المستلقي عند الحائط ذكرى الشاب الغائب عنه. دفعته هذه الذكرى إلى أن ينتفض من مكانه وينحني صوب السائق. كاد أندريه أن يصيح قائلا لنفسه «ولكن ليس هناك أي شيء مشترك بينهما!» في الحقيقة لم يكن هناك فعلا أي تشابه بينهما. الأمر ببساطة أنه تصور فولوديا بحيوية. فكر في نفسه قائلا: «وماذا إن وجد فولوديا نفسه في موقف كهذا رغمًا عنه؟!» ببساطة ارتكب حماقة أن يدع حساسيته الرقيقة تتقد بداخله. توقفت السيارة. رفعا نيكولاي كافاليروف وسمعا هذيانه.

أخذه أندريه إلى منزله، وسحبه إلى الطابق الثالث وجعله يستلقي على أريكة فولوديا، وأعد له فراشًا ودثَّره حتى عنقه... غطى هذا الشخص المستلقي على ظهره وعلى وجنته ما يشبه أثر كعكة ساخنة. مضى سيد المكان إلى نومه راضيًا؛ فالأريكة لم تعد شاغرة.

في هذه الليلة تحديدًا حلم بشاب قد شنق نفسه على تليسكوب.

كان ثمة فراش رائع بغرفة أنيتشكا بروكوبوفيتش مصنوع من خشب غالي، مطلي بلون كريزي قاتم، بأقواس مزخرفة زجاجية على الناحية الداخلية من مسنده.

ذات مرة في عام هادئ للغاية أثناء مهرجان شعبي، ومع أصوات الأبواق والحلوى المنثورة حدث أن جاء زوج أنيتشكا وصعد الدرجات الخشبية وأعلن أنه قد أصبح لديه الحق في الحصول على فراش رائع بعد أن ربح اليانصيب ونال إيصال الاستلام من المدير. جاءا بالفراش على عربة تجرها الخيل. صفَّر الصبية.

انعكست السماء الزرقاء مع حركة المرايات على الأقواس المزخرفة للفراش، تمامًا كما لو أن أجفان أعين رائعة تنفتح وتُغلق ببطء.

عاشت الأسرة وانهارت، ومر الفراش بكل صنوف المعاناة.

يعيش كافاليروف في الزاوية خلف هذا الفراش.

جاء إلى أنيتشكا وقال:

- يمكنني أن أدفع لكِ ثلاثين روبلا شهريًا مقابل أن تسمحي لي بالعيش في هذه الزاوية.

ابتسمت أنيتشكا ابتسامة واسعة ووافقتْ.

لم يكن لديه مكان ليذهب إليه. سكن بغرفته السابقة ساكن جديد قوي للغاية. باع كافاليروف فراشه المريع لقاء أربعة روبلات، وقد فارقه الفراش بولولة شديدة.

كان فراش أنيتشكا يشبه أرغنًا[1]، وكان يشغل نصف الحجرة تقريبًا، وذابت أجزاؤه العليا في غسق السقف.

فكر كافاليروف: «لو كنت طفلا؛ ابن أنيتشكا الصغير، فكم كان عقلي الطفولي لينتج صورًا شعرية فاتنة يضفيها على مرأى مثل هذا الشيء العادي! أنا الآن بالغ، وليست لديَّ سوى أفكار عامة وبعض التفاصيل، ولكن كان من الممكن أن أكون قادرًا على...

... ولكن إن لم أكن خاضعًا للمسافات والمقاييس والأزمنة والأوزان والجاذبية، لكنت قد انسللت عبر الممرات التي تشكلت بفعل الفراغ الكائن بين نوابض الفراش وحوافه، ولكنت

(١) آلة موسيقية تعتمد على مفاتيح كالبيانو.

قد اختبأت خلف الأعمدة التي لا تبدو لي الآن أكثر من أوعية معملية زجاجية، ولكنت قد نصبت تلك المجانيق المتخيلة على أسوارها وأطلقت على العدو الذي يفقد قوته بالهروب عبر الأرض المغمورة للدثار الناعم، ولكنت قد رتبت استقبال السفراء تحت مرايات هذه الأقواس المزخرفة للفراش كما حدث مع الملك في الرواية التي أنهيت لتوي قراءتها، ولكنت قد انطلقت في رحلات خيالية عبر نقوش الدثار، بل وصعدت أكثر فأكثر عبر أقدام ومؤخرات الكيوبيدات[1]، وتسلقتها كما لو أنني أتسلق تمثال بوذا، غير قادر على إحاطتها كاملا بنظري، وعند القوس المزخرف الأخير، ومن ارتفاع يصيب المرء بالدوار، أسقط في هذه الهوة المريعة؛ الهوة الثلجية للوسائد...»

يقود إيفان بابيتشيف كافاليروف على طول الضفة الخضراء... تطير زهور الهندباء البرية من أسفل أقدامهم، وتطفو وتعكس سباحتها حرارتها الشديدة بديناميكية... يشحب بابيتشيف إثر هذه الحرارة. يلمع وجهه كاملا، ويبدو كما لو أن هذه الحرارة الشديدة تنحت قناعًا حول وجهه. يصدر أمره قائلا:

---

(١) جَمع كيوبيد: في الميثولوجيا الرومانية هو ابن الإلهة فينوس، وقد اشتهر دائما بحمله للسهم، وبكونه طفلا. يُصور كطفل صغير في هيئة ملاك بجناحين ومعه سهم الحب.

- من هنا!

تبدو الضواحي مزدهرة.

يجتازان أرض قفر ويسيران بامتداد الأسيجة، وتنبح كلاب الرعي من خلف هذه الأسيجة وتصلصل السلاسل. يصفر كافاليروف مُهيجًا الكلاب، ولكن كل شيء ممكن: قد ينجح أحدها في تحطيم السلسلة والانطلاق عبر السياج، وبالتالي تذوب كبسولة من الهلع في مكان ما من معدة ذلك المُهيِّج.

يهبط العابران المنحدر الأخضر، ويسيران تقريبًا على أسطح المنازل الحمراء فوق قمم الحدائق. لا يعرف كافاليروف هذا الموقع، وحتى عندما تلوح لعينيه أبراج كريستوف لا يستطيع تبين الطريق. تتناهى إلى أذنيه صافرات القطارات ورنين قضبان السكك الحديدية.

قال إيفان ملتفتًا لكافاليروف:

- سوف أريك آلتي. اقرص نفسك... أقرصها مجددًا... مرة ثالثة... ألا تحلم؟ لا؟ تذكَّر الآتي: لم تكن نائمًا. تذكَّر: كل شيء كان بسيطًا. سرنا سويًا عبر أرض بور، وكانت البركة التي لا تجف أبدًا تلمع، وكانت أسيجة

الأوتاد مزينة بالأصص. تذكر يا صديقي: كان بالإمكان ملاحظة وجود أشياء رائعة في القمامة الملقاة بامتداد الطريق وتحت الأسيجة في المصارف. انظر مثلا: صفحة من كتاب. التقطها وأنظر إليها قبل أن تأخذها الريح. أنظر! إنها رسوم إيضاحية لتاراس بولبا[1]. هل تبينتها؟ لا بد أنهم ألقوا من تلك النافذة الصغيرة بقايا طعام ما كان ملفوفًا ببعض الأوراق، وسقطت تلك الورقة هنا. فلنواصل... ما هذا؟ الحذاء التقليدي الأبدي مُلقى في مصرف؟ إنه لا يستحق الالتفات إليه، فهذا نموذج مثالي تمامًا للخراب. فلنواصل... إنها زجاجة. انتظر، إنها لا تزال سليمة، لكنها سوف تُسحق غدًا تحت عجلة العربة، وإن مر بطريقنا حالم آخر بعدنا مباشرة، سيرضى كل الرضا من تأمل هذه الزجاجة الشهيرة، وهذه البقايا الشهيرة التي مجَّدها الكتَّاب لقدرتها على التوهج فجأة بين القمامة والخراب وخلق هذا السراب لكافة أنواع المسافرين. أنظر يا صديقي! أنظر... أزرة وحلقات وخرق وضمادات، وأبراج

---

(١) رواية شهيرة لنيكولاي جوجول.

بابلية متحجرة لبراز بشري.... باختصار يا صديقي إنها الزينة التقليدية التي تجدها في أرض قفر. احفظ ذلك جيدًا: كل شيء كان بسيطًا. لقد قُدتك إلى هنا لأريك آلتي. أقرص نفسك. نعم، هكذا. إنك لا تحلم، أليس كذلك؟ حسنًا، بعدها... أنا أعرف ما سيحدث بعدها: ستقول أنك شعرت بالمرض، وأن الحرارة كانت شديدة، ويمكنك التظاهر بأمور كثيرة بسبب الحرارة؛ بالإنهاك مثلا وما إلى ذلك. لا يا صديقي، أطالبك بأن تؤكد بأنك في حالة طبيعية تمامًا أكثر من أي وقت آخر. ما ستراه الآن يمكن أن يصعقك بقوة.

قال كافاليروف مؤكدًا:

- أنا في حالة طبيعية تمامًا أكثر من أي وقت آخر.

ولاح سياج... سياج خشبي قصير. قال إيفان:

- إنها هناك. انتظر، فلنجلس... فلنجلس هناك فوق الوادي أقول لك إن حلمي كان اختراع سيدة الآلات؛ آلة كونية. كنت أفكر في اختراع آلة آملتُ أن أُركِّز فيها عمل مئات الوظائف المختلفة. نعم يا صديقي، إنها

مهمة نبيلة رائعة. مهمة كهذه كانت تستحق أن أتحول إلى متعصب. كانت فكرتي أن أُروِّض مستودون[١] التكنولوجيا وأجعله أليفًا منزليًا... كان حلمي أن أعطي الإنسان هذه العتلة الصغيرة البسيطة المألوفة له، والتي لن تخيفه وستكون مألوفة له كقفل الباب...

نبس كافاليروف:

- أنا لا أفهم شيئًا عن التكنولوجيا. أنا أخشى الآلات...
- وأنا نجحت. اسمعني يا كافاليروف. أنا اخترعت هذه الآلة.

جذب السياج، ولاح أنه على الأرجح لم يكن هناك أي سر غامض في تلك الألواح الخشبية الرمادية العادية.

- بإمكانها أن تُفجِّر جبالًا، وبإمكانها أن تطير. إنها ترفع الأثقال وتهشم المعادن. بإمكانها أن تؤدي وظائف موقد المطبخ وعربة الأطفال. إنها آلة طويلة الأمد، بل إنها تمثل عبقرية التكنولوجيا في حد ذاتها.

---

(١) حيوان بائد شبيه بالفيل.

- ما الذي يضحكك يا إيفان بتروفيتش؟

لاح بعض المزاح في زاويتي عينيه.

- أنا أزدهر... لا يسعني التحدث عنها دون أن يخفق قلبي بقوة، كبيضة في مياه مغلية. استمع لي: لقد وهبتها القدرة على القيام بمئات الوظائف. لقد اخترعت آلة يمكنها أن تصنع كل شيء. أتفهمني؟ سترى الآن بنفسك، ولكن...

نهض من مكانه ووضع يده على كتف كافاليروف وقال بلهجة احتفالية:

- لكني حظرت عملها. أدركت في يوم رائع أني قد وهبت إمكانية خارقة لأنتقم من عصري هذا فأفسدت الآلة متعمّدًا وبغل شديد.

وأطلق ضحكة سعيدة.

- لا، بإمكانك يا كافاليروف أن تتفهم مدى شعوري العظيم بالرضا حينما أفسدت أعظم ما وصلت إليك التكنولوجيا بأحط المشاعر الإنسانية. لقد ألحقتُ الخزي بالآلة. انتقمتُ من القرن الذي أعيش فيه،

والـذي أعطـاني هذا المـخ الموجود بجمجمتـي... هذا المخ الذي ابتكر آلة مدهشة. لمن أتركه؟ أأتركه للعالم الجديد؟ إنهم يفترسوننا كمضغة طعام. يبتلعون القرن التاسع عشر بأكمله كما تبتلع الأفعى أرنبًا؛ ما ينفعهم منه يلتهمونـه، وما يضرهم منه يبصقونـه. إنهم يبصقون مشاعرنا، أما ما وصلنا إليه من تكنولوجيا فيلوكونه! سوف أنتقم لمشاعري. لن ينالوا آلتي، ولن أدعهم يستفيدون مني ولن يأكلوا مخّي... كان بإمكاني آلتي أن تُسعِد أبناء القرن الجديد، وتُدخله من يومه الأول إلى ذروة التكنولوجيا. لكنهم لن يضعوا أيديهم عليها. إن آلتي هي علامة التين البذيئة[1] التي سيؤديها القرن المحتضر للآخر الوليد. سيسيل لعابهم عندما يرونها. يمكنك أن تتصور أن الآلة التي هي معبودهم... وفجأة... فجأة يتضح أن أفضل الآلات هي وغد عاطفي كذاب مبتذل. فلنمض... سأريك. إنها قادرة

(١) إشارة بذيئة باليد تستخدم على الأقل منذ العصر الروماني في إيطاليا وجنوب أوروبا وأجزاء من منطقة البحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك الثقافة التركية، كما تم تبنيها من قبل الثقافات السلافية وجنوب إفريقيا.

على فعل كل شيء. إنها تنشد الآن أغانينا العاطفية؛ أغاني قرننا القديم الغبية، كما تجمع زهوره. إنها تعشق وتغير وتبكي وتحلم... أنا من فعلت كل ذلك. لقد هزأت بإله أولئك المختالين؛ ألا وهو الآلة! أعطيتها اسم فتاة جنت من الحب واليأس: أوفيليا[1]؛ أكثر الأسماء إنسانية وتراجيدية.

جر إيفان كافاليروف وراءه.

انحنى إيفان على الصدع وقد وجَّه عجيزته النحاسية اللامعة صوب كافاليروف، وبدت مؤخرته وكأنها عبارة عن ثقلين فقط.

ربما أتى الأمر أثره فعلا بفعل الحرارة أو الفراغ البعيد غير المعتاد أو مدى بداعة المشهد المفاجيء لموسكو، أو ربما حتى أتى الإنهاك أثره، ولكن ما إن وجد كافاليروف نفسه بعيدًا عن الناس وضجيج المدن المعتاد حتى سقط فريسة لسراب ما ونوع من الهذيان السمعي. بدا الأمر كما لو أنه كان يستمع لصوت

---

(١) شخصية في مسرحية ويليام شكسبير هاملت. إنها شابة نبيلة من الدنمارك، ابنة بولونيوس، أخت لارتيس وزوجة الأمير هاملت المحتملة، والتي ينتهي بها المطاف بسبب أفعال هاملت إلى حالة من الجنون تؤدي في النهاية إلى غرقها.

إيفـان يتحـدث مـع شـخص مـا عـبر الصـدع . ارتـد بعدهـا إيفان، وكذلـك فعـل كافاليـروف، بالرغـم من أنـه كان يقف على مسـافة لا بـأس بهـا مـن إيفان، كما لو أن الخوف اختبأ في مكان ما وسـط الأشجار المقابلة وأمسك بكليهما بخيط واحد وجذبه إليه.

- من يُصفِّر؟

هكذا صاح كافاليروف بصوت مرتعد من فرط الخوف.

انطلق صفير ثاقب عبر المكان. التفت كافاليروف دافنًا وجهه بين يديـه كما لو أنه يتحاشـى رياح عاصفـة. ركض إيفان من عند السـياج إلـى كافاليـروف، كأنـه يبـذر خطواتـه الصغيـرة، وطـارده الصفيـر، كمـا لـو أن إيفـان لـم يكـن يركـض بـل ينزلق على شـعاع صافرة يعمي الأبصار.

سمع كافاليروف إيفان يتمتم مختنقًا:

- إنها تخيفني! إنها تخيفني!

أمسـكا بأيـدي بعضهمـا البعـض، وركضـا سـويًا إلى الأسـفل، تطارِدهمـا لعنـات أحـد المتشـردين، ظنًّـا في البدايـة مـن موقعهـم بالأعلى أنه عدة جواد ألقى بها شخص ما.

جلس المتشـرد الذي انتُزِع من نومه فجأة على الرابية متلمسًـا

العشب باحثًا عن حجر، أما هما فقد اختبئا في الشارع الصغير. قال إيفان بسرعة:

- إنها تخيفني... إنها تكرهني.... لقد خانتني... سوف تقتلني...

أما كافاليروف، وبعد أن لملم شتات نفسه، خجل من جبنه. تذكر أنه عندما شاهد إيفان يهرب سريعًا، ظل شيء ما مخيف ماثلا أمام عينيه لكنه لم يستطع النظر إليه بتمعن. قال:

- اسمع... يا للهراء! الأمر ببساطة أن صبيًا صفَّر بإصبعيه. لقد شاهدته. ظهر الصبي عند السياج وصفَّر. نعم... صبي...

ابتسم إيفان قائلا:

- لقد قلت لك... قلت لك إنك سوف تبدأ البحث عن مختف التفسيرات. لقد طلبت منك أن تقرص نفسك مجددًا.

اندلع جدال بينهما. عرج إيفان على حانة لم يجدها إلا بصعوبة. لم يدع كافاليروف. تهادى الأخير في سيره دون علم بالوجهة الصحيحة، منصتًا السمع ليلاحظ صوت الترام. لكن في

أقرب زاوية، وبعد أن رُضَّت قدمه فيها، انعطف صوب الحانة. التقاه إيفان بابتسامة وأشار إليه بيده ليجلس إلى طاولته. توسل كافاليروف إليه قائلا:

- ولكن قُل لي... أجبني... لماذا تعذبني؟ لماذا تخدعني؟ ليست هناك آلة سحرية كهذه. لا يمكن أن توجد من الأساس مثل هذه الآلة. هذا كذب وهذيان. لماذا تكذب عليَّ؟

ومن شدة إنهاكه تهاوى جالسًا إلى الطاولة.

- اسمع يا كافاليروف... اطلب جعة لنفسك وسأحكي لك حكاية. اسمع:

حكاية لقاء الأخوين

أحاطت سقالات بالإطار الرقيق النامي لـ «ربع روبل».

السقالات هي السقالات: عوارض خشبية وموازين بناء ودرجات وممرات ومعابر وسقائف، لكن الاختلاف كان في الحشد والأعين التي احتشدت عند القاعدة. مال بعضهم إلى البساطة وقال: «البناء حصين». أدلى أحدهم بملاحظة:

- ليس من المفترض أن ترتفع البنايات الخشبية طويلا. العين لا تحترم لوحًا خشبيًا مرتفعًا. السقالات تُقلِّل من عظمة البناية. حتى أعلى عارضة خشبية تبدو مُعرَّضة للهلاك. يظل كل هذا الارتفاع الخشبي واهنًا رغم كل شيء، وتخطر فكرة إمكانية حدوث حريق على الذهن فورًا.

وصاح آخر:

- ومن ناحية أخرى... انظروا! العوارض تبدو ممدودة كالأوتار. هذا جيتار... نعم، تبدو مباشرة كالجيتار.

الأمر الذي جعل السابق يقول:

- لقد حدثتكم عن وهن تلك العوارض الخشبية. إن قدرها إذن أن تصبح آلة موسيقية.

حينها تدخل صوت ساخر قائلا:

- وماذا عن آلات النفخ النحاسية؟ أنا مثلا لا أعترف إلا بآلات النفخ.

اكتشف أحد التلاميذ في توزيعة الألواح الخشبية علاقة حسابية ما، لكنه لم يستطع أن يكتشف نتاج عمليات الضرب

وإلى أين تؤدي علامات (=)، فقد تلاشى التشابه فجأة، حيث كان الأمر متداعيًا.

فكَّر شاعر في نفسه قائلا «حصار طروادة! أبراج الحصار»

وازدادت المقارنة قوة بظهور الموسيقيين. انسلوا عبر نوع من الخنادق الخشبية إلى قاعدة البناية، تحجبهم الأبواق.

كان مساءً مظلمًا، وأضاءت المصابيح البيضاء الكروية المكان، وبدت الرايات شديدة الحمرة بشكل غير عادي، أما الفجوات بين الممرات الخشبية فكانت ظلمتها حالكة السواد. تمايلت المصابيح وأزَّت سلوكها. بدا الأمر كما لو أن الظل يغلق ويفتح جفنيها. طار الناموس حول المصابيح ومات. من بعيد مزَّقت أضواء المصابيح الخفاقة محيط المنازل القريبة، مُجبِرة النوافذ الممتدة على الطريق على الوميض، واندفعت الأضواء صوب البناية، وحينها أحيت الألواح الخشبية بقوة، وانتقلت عدوى الحركة إلى كل شيء، كما لو أن مركبًا شراعيًا متعِدد الطوابق كان يطفو فوق الحشد، واستمر ذلك حتى هدَّأت الريح من تمايل المصابيح.

سار أندريه بابيتشيف وسط الأخشاب عند قاعدة البناء. كان

هناك منبر قد شيَّد نفسه بنفسه، وبالتالي نال الخطيب بغيته: سلمًا ومنصة ودرابزون وخلفية سوداء مبهرة خلفه وضوءًا موجهًا عليه مباشرة. لقد مُنِح الكثير من الضوء، حتى إن مراقبي المشهد البعيدين استطاعوا أن يروا مستوى الماء بالإبريق الكائن على طاولة اللجنة التنفيذية.

صعد بابيتشيف فوق مستوى الحضور وهو في كامل ازدهاره وتألقه كعلبة قصديرية، أو ربما كتمثال كهربائي. كان عليه أن يلقي خطبة. بالأسفل، كان الممثلون بالمأوى الذي تشكل تلقائيًا، يستعدون لأداء أدوارهم. تعالى صوت أنين أوبوا[1] عذب، غير مرئي وغير مفهوم للحشد. وبشكل غير مفهوم تحول سطح الطبل المواجه للحشود إلى اللون الفضي من حدة الإضاءة. كان الممثلون يتزينون في قلب هذا الوادي الخشبي. كل خطوة لأحد المارة بالأعلى كانت تحرك الألواح الخشبية فوقهم وتنثر سحابة من نشارة الخشب.

اندهش الحضور من ظهور بابيتشيف فوق المنصة. استقبلوا ظهوره بوصفه المشرف على المكان. بدا أنه في حالة شديدة

(١) آلة نفخ موسيقية.

الانتعاش والتركيز، كما بدا مظهره الخارجي مسرحيًا.

صاح واحد من الحشد:

- إنه سمين! ها هو واحد سمين!

وتعالت أصوات من مختلف الأماكن صائحة: «برافو!

أما عبارة: «الكلمة الآن للفريق بابيتشيف» فقد قيلت من قِبل الواقفين عند المنصة. المضحك في الأمر أنه لم يظهر له أثر. شب الكثيرون على أطراف أقدامهم. أولى الناس انتباهًا شديدًا للأمر، وشعر كل واحد بالسعادة، بل بالسعادة الشديدة لرؤية بابيتشيف، وذلك لسببين:

١ - كان إنسانًا شهيرًا.

٢ - كان إنسانًا سمينًا.

بدانته جعلتهم يشعرون أن هذه الشخصية الشهيرة تنتمي إليهم. استقبلوا بابيتشيف بحفاوة، وكان نصف التصفيق احتفاءً ببدانته. ألقى بابيتشيف خطبته.

تحدث عن نوعية النشاط المرتقب لـ«ربع روبل» وحجم وجبات الغداء الضخم التي سيوفرها وقدرته المفترضة على

توفير نسبة مئوية معينة من الطعام للناس، وعن ميزات عملية التغذية الاشتراكية.

تحدث كذلك عن تغذية الأطفال، وعن أن مشروع الـ «ربع روبل» سوف يتضمن قسمًا للأطفال، وتحدث كذلك عن التحضيرات العلمية لإعداد عصيدة الحليب وعن نمو الأطفال والعمود الفقري وفقر الدم (الأنيميا). كأي خطيب آخر نظر بعيدًا فوق مستوى حشود الناظرين إليه، وبالتالي ظل منعزلا عما يحدث بالأسفل وسط الحشود تحت المنصة حتى نهاية خطبته. في هذه الأثناء كان شخص ما يرتدي قبعة قد نجح في تشتيت انتباه الحضور عنه، ولم يعودوا يستمعون إليه، وقد انشغلوا بسرور بسلوك هذا الإنسان الذي بدا - على عكس الخطيب - مسالمًا تمامًا. صحيح أنه بعد أن ابتعد عن الحشد، خاطر بمحاولة تجاوز الحبل المحيط بالمنصة، وصحيح أنه وقف بمفرده مما أوحى بأنه يتمتع ببعض الحقوق، بغض النظر عما إن كانت لديه هذه الحقوق فعلا أو أنه استولى عليها ببساطة. وقف موليًا ظهره للجمهور، مستندًا إلى الحبل، أو بالأحرى جلس جزئيًا على الحبل، مُدلِّيًا مؤخرته عليه، غير مبالي بحجم الفوضى الذي سيحدث إن تمزق الحبل، بل لاح عليه بوضوح الهدوء

والرضا باهتزاز الحبل تحته. ربما كان يستمع إلى الخطيب، أو ربما كان منخرطًا في مراقبة الممثلين. توهج فستان راقصة الباليه من خلف العوارض ولاحت وجوه مضحكة تختلس النظر إلى المشهد من خلف النافذة الخشبية.

ثم... آه! أهذا هو المهم بالأمر؟ هذا إنسان غريب الأطوار قد جاء حاملا وسادة كبيرة قديمة نامت عليها رؤوس كثيرة داخل علبة خشبية صفراء، وما إن استند إلى الحبل حتى ترك الوسادة على الأرض، وجلست الوسادة بجانبه كخنزير.

أنهى الخطيب خطبته، مجففًا شفتيه بمنديل، وباليد الأخرى ارتوي من إبريق الماء إلى أن خفت التصفيق وتحول انتباه الحضور عنه استعدادًا لسماع ورؤية الممثلين، وفي هذا الوقت رفع أحدهم مؤخرته من على الحبل ونهض بقامته القصيرة ممسكًا بوسادته، ومد ذراعه الممسك بالوسادة وصاح بصوت صاخب:

- أيها الرفاق. أطلب الكلمة.

حينها رأى الخطيب أخاه إيفان. عقد قبضتيه. بدأ أخوه إيفان يصعد درجات السلم إلى المنصة، وفعل ذلك ببطء. ركض

صوبه واحد من أعضاء اللجنة التنفيذية. كان من المفترض أن يوقف هذا الغريب بالصوت والإيماءات، لكن ذراعه ظل معلقًا في الهواء كما لو أنها تعد خطوات الغريب على السلم، ثم خفضها مرتعشة.

- واحد - اثنان - خمسة - ست. ...

صاح واحد من الحشود:

- هذا تنويم مغناطيسي!

لكن الغريب أكمل خطواته حاملا الوسادة على ياقة قميصه. ها قد اعتلى المنصة. كأنه تمثال كهربائي على الخلفية السوداء التي بدت في سوادها كلوح أردواز. كانت الخلفية سوداء إلى حد أن بدا كأن خطوطًا طباشيرية تظهر على سطحها وتومض أمام العيون. توقف الرجل. سرى همس وسط الحضور: «الوسادة!» في النهاية تحدث قائلا:

- أيها الرفاق، إن جياد الثورة تنهمر على السلالم الخلفية، ساحقة أطفالنا وقططنا، محطمة ألواحنا المحببة من القرميد والطوب، وسوف تقتحم مطابخنا. فخر وكبرياء نساءكم؛ ألا وهو الموقد، مُهدد. أفيال الثورة

تريد أن تسحق مطابخكم وأمهاتكم وزوجاتكم...

تُرى ماذا كان يقول؟ كان يهزأ بأوانيكم وأصصكم وصمتكم وحقوقكم في أن تُدخلوا الرضاعات بين شفاه أطفالكم... ما الذي يعلمكم نسيانه؟ ما الذي يريد أن يقتلعه من قلوبكم؟ آه يا منزلي... آه يا منزلي العزيز! يريد أن يُشرِّدكم في حقول التاريخ الوحشية. أيتها الزوجات... إنه يبصق في حساءكن. أيتها الأمهات، إنه يحلم أن ينزع عن وجوه أطفالكن الصغيرة أوجه تشابههم الأسرية المقدسة الرائعة بكن. ينفث غضبًا في أزقتكن، وينقض كالفأر على قلاياتكن وينسل أسفل أسرتكن وتحت أردية نومكن، وبين شعوركن وتحت آباطكن. فلتطردوه إلى الجحيم. هذه وسادة. أنا مَلِك الوسائد. قولوا له: نريد أن ينام كل منا على وسادته. لا تمد يدك إلى وسائدنا! لم ينبت لرؤوسنا ريش وزغب أحمر مثل ما نجده بالدجاج... هذه الرؤوس ارتمت على الوسائد، وسقطت عليها قبلاتنا في ليالي الحب، وعلى تلك الوسائد أحببنا، كما مات عليها كذلك أولئك الذين قتلناهم. لا تمد يدك إلى وسائدنا!

لا تنادنا! لا تؤمئ لنا! لا تغونا! ما الذي يمكنك أن تعرضه علينا بدلا من قدرتنا على الحب والكراهية والأمل والبكاء والأسف والغفران؟ هذه الوسادة هي شعارنا... هي رايتنا. ستحمينا الوسادة من الرصاص وسنخنقك بها...

انقطعت خطبته، لكنه كان قد قال الكثير بالفعل. بدا الأمر كما لو أنهم أمسكوا به بعد أن قال جملته الأخيرة. كما يلوي المرء ذراعه، لوى عبارته الأخيرة خلف ظهره. توقف لبرهة قصيرة، وشعر بالهلع فجأة. كان سبب خوفه تحديدًا هو أن من أخذ يهاجمه بعنف ظل واقفًا يستمع إليه في صمت. كان من الممكن فعلا أن يتحول المشهد كله إلى عرض حقيقي. على الأقل أدرك الكثيرون الأمر بهذه الطريقة، حتى أن كثيرين من الممثلين ظهروا بين الجمهور، بل إن ممثلين حقيقيين خرجوا من تحت السقيفة الخشبية. نعم، لم يكن ظهور راقصة الباليه من خلف الألواح الخشبية سوى ظهور فراشة. تسلل إلى المنصة مهرج في زي قرد مستندًا إلى العارضة بيد واحدة، وباليد الأخرى حمل آلة موسيقية غريبة الشكل عبارة عن بوق طويل ذي ثلاث فتحات. وما دام المرء يمكن أن ينتظر أي شيء من إنسان يرتدي حلة

قرد وشعر مستعار أحمر، كان من السهل إذن أن يُكوِّن المرء انطباعًا بأن هذا المهرج يندفع عبر بوقه هذا بطريقة ما سحرية. اندفع شخص يرتدي معطفًا طويلا إلى المكان أسفل المنصة ليمسك بهؤلاء الممثلين المتناثرين، لكنهم كانوا يرومون رؤية هذا الخطيب المدهش. وصل الأمر إلى أن الممثلين افترضوا أن أحد ممثلي الفن الشعبي قد دُعِي للمشاركة في الحفل الموسيقي، وقد دبر مزحة ما، وجلب معه وسادة وانخرط في جدال مع المراسل، وسيبدأ حالا عرضه المعتاد. ولكن لا... بدلا من ذلك جاء مهرج حاملا بوقًا أحمق. ساد القلق. لكن الكلمات التي بذرها ذلك الغريب بسخاء في أرض الحشود لم تُثِر اضطرابهم، بل على العكس؛ بدا حديث هذا الشخص كأنه تشكيلة مقصودة من ألعاب بهلوانية مختلفة. لكن الصمت الذي ساد بعد ذلك حرَّك الشعور تحت الكثير من القبعات. سألهم بينما يلقي بوسادته:

- لماذا تحدقون فيَّ هكذا؟

تَردد بكامل الميدان ونوافذه وشرفاته صوت المارد، أو صيحته القصيرة، ولم يكن أحد يعرف أن أخًا يكلم أخاه، وهب الشيوخ من أسِرّتهم. سأل المارد:

- أتعلم من تنازع أيها الوغد؟

انتفخ وجهه وبدا كما لو أن سائلا داكنًا ما سوف يتدفق من كل مكان بهذا الوجه كما لو من زِق[1]؛ من منخريه وشفتيه وأذنيه وعينيه، وأغلق الجميع أعينهم بهلع... لم يكن هو من قال ذلك، بل قالته الألواح الخشبية من حوله والخرسانة والأشكال المُشكَّلة من اللحم... غضب كل ما سبق هو ما فجَّره.

لكن أخاه إيفان لم يتراجع، رغم أن الجميع قد توقعوا أن يتراجع أكثر فأكثر ويجلس على وسادته. على النقيض؛ استجمع قواه فجأة وانتصب واقترب من الحاجز، وأدى تحية عسكرية صائحًا:

- أين أنت؟ أنا في انتظارك. أوفيليا!

هبت ريح قوية، وهزت المصابيح، لكن مثل هذه العصفات تحدث طوال الوقت. اعتاد أولئك الحاضرون بالفعل على اتصال وانفصال أشكال الظلال سواء كانت أشكال مربعات أو سراويل فيثاغورث[2]

---

(١) الزق هو وعاء جلدي للخمر.

(٢) سروال فيثاغورس اسم هزلي لنظرية فيثاغورس، نشأ بسبب حقيقة أن المربعات المبنية على جانبي المستطيل والمتباينة في اتجاهات مختلفة تشبه قطع البنطال.

أو أهلة أبقراط[1] كما اعتادوا على رؤية المراكب الشراعية متعددة الطوابق تفارق مراسيها وتنطلق وسط الحشود، وبالتالي من شأن عصفة ريح جديدة تدير الكثير من الأكتاف وتحني الكثير من الرؤوس أن تُقابل بشعور سخط معتاد وتُنسى على الفور إلا إذا... قيل بعد ذلك أن الريح عصفت فوق الرؤوس، وأنها جاءت من الخلف.

أبحرت سفينة شراعية عملاقة بين الحشود يتصاعد صرير خشبها وعوائها إثر الريح، وبدا الجسد الطائر الأسود كطائر قد اصطدم بأعلى عارض بالسفينة وحطم الفانوس في اندفاعه.

سأل إيفان:

- هل تشعر بالخوف يا أخي؟ إليك ما سأفعله: سوف أطلقها في هذه الألواح الخشبية. سوف تحطم بناءك. سوف تفك البراغي وتحل حلقاتها وتُلحِق الاضطراب بالأسمنت كما يحدث لجسد مجذوم. سوف تُتلف

---

(١) في الهندسة الرياضية، هلال أبقراط هو هلال محدود بقوسين لدائرتين، أصغرها قطره هو عبارة عن وتر مولد لزاوية قائمة على الدائرة الكبيرة. وبالمثل، فهي منطقة مستوية غير محدبة يحدها قوس دائري قياسه ١٨٠ درجة وقوس دائري قياسه ٩٠ درجة. كان هذا أول شكل منحني حُسِب مساحته بدقة رياضيًا. سمي هذا الهلال هكذا نسبة إلى أبقراط الخيوسي.

كل شيء. سوف تُحوِّل كل رقم لديك إلى زهرة عديمة الفائدة... هذا ما أستطيع أن أفعله يا أخي أندريه.

فجأة تصاعد صوت رقيق وحار مِن ذلك الذي كان يُتوقع منه أن يُطلق عاصفة.

- إيفان... أنت مريض بشدة. إنك تهذي. عمن تتحدث؟ من هي؟ إني لا أرى شيئًا. من الذي سيحول أرقامي إلى زهور؟ إنها مجرد ريح قد هزت المصباح المعلق على العارضة وحطمته. إيفان... إيفان...

وخطا الأخ صوب إيفان مادًا إليه يده، لكن الأخير تحاشاه وصاح رافعًا يده:

- أنظر! لا.. ليس من هذا الاتجاه. إلى اليسار أكثر، أترى؟ ما هذا الموجود على العارضة الخشبية الصغيرة؟ أترى؟ فلتشرب بعض الماء. صُب لي ماءً أيها الرفيق بابيتشيف. ما الذي اعتلى السارية هناك؟ أترى؟ هل تصدق الآن؟ هل تشعر بالخوف؟

- هذا ظل. هذا مجرد ظل يا أخي. فلنمض من هنا. سوف أصطحبك بسيارتي. لندع العرض يبدأ الآن،

فالممثلون قد تعبوا والجمهور ينتظرهم. فلنذهب يا فانيا.. فلنذهب.

- أتقول «ظل»؟ هذا ليس ظلا يا أندريوشا. إنها الآلة التي تسخر منها. أنا من اعتليت السارية يا أندريوشا.. أنا العالم القديم... إن قرني يجلس هناك. إن عقل قرني يا أندريوشا قادر على تأليف أغانٍ وأشكال... إنه عقل مليء بالأحلام التي تود أن تحطمها.

رفع إيفان يده وصاح:

- اذهبي يا أوفيليا! أنا أرسلك.

أومض الكائن فوق العارضة الخشبية واستدار وبدأ يقرع العارضة كما ينقر الطائر وبدأ يتلاشى في الظلام الذي بين العوارض.

ساد الهلع المكان وتدافع الناس راكضين وصارخين. أطلق هذا الكائن رنينًا بينما يشق طريقه عبر الألواح الخشبية. فجأة ظهر مجددًا وقد أطلق شعاعًا بلون عصير البرتقال وصفَّر ولم يظهرَ شكله بوضوح، بل بدا ظل عديم الوزن كالعنكبوت، وصعد إلى أعلى في خط رأسي بين فوضى العوارض الخشبية، واتكأ مجددًا فوق إحدى الحواف ونظر من حوله...

- اعملي يا أوفيليا! اعملي!

هكذا صاح إيفان راكضًا فوق المنصة، وأكمل قائلا:

- أسمعتِ ما قاله؟ أنا آمرك بتحطيم البناية...

ركض الناس واقترن هروبهم بهروب السحب وتصاعدت فوجا[1] سمائية عاصفة.

تهدمت الـ «ربع روبل»...

وصمت الراوي...

لاحت الطبلة في وضع مستوي فوق الأنقاض، ومن فوقها جثمتُ أنا إيفان بابيتشيف. أسرعتْ أوفيليا صوبي وهي تسحب جسد أندريه المسحوق المحتضر. همس قائلا:

- فلتضع وسادتك تحت رأسي يا أخي. أود أن أموت ورأسي فوق وسادة. أنا أستسلم يا إيفان..

وضعت الوسادة فوق ركبتي، وأسند رأسه إليها، وقلتُ:

- لقد انتصرنا يا أوفيليا.

---

(١) نوع من الغناء الأوبرالي.

-٧-

في صباح يوم الأحد زار إيفان بابيتشيف كافاليروف. أعلن بلهجة احتفالية:

- سأُريك اليوم فاليا.

انطلقا. يمكن وصف نزهتهما بالفاتنة. تنزها وسط فراغ المدينة المحتفِلة. ذهبا صوب منعطف ميدان المسرح (تياترالنايا). لم تكن هناك حركة تقريبًا. لاح الطريق الصاعد صوب شارع تفيرسكايا أزرق اللون. في صباح يوم الأحد يحظى المرء بأفضل مناظر صيف موسكو. بدا نور الشمس الذي لم تقطعه حركة الناس كاملا، كما لو أن الشمس قد أشرقت لتوها. سارا بهذه الطريقة وفقًا لخطة النور والظل الحسابية، أو بالأحرى سارا عبر جسد ثلاثي الأبعاد، لأن النور والظل لم يتقاطعا على الأرض وحسب، بل على الهواء أيضًا. قبل حتى أن يبلغا موسوفيت[1] وجدا الظل قد غمرهما كاملا. لكن بين فجوة جسديهما سقطت كتلة ضوء ضخمة. كانت لزجة، وبدت كثيفة، وكان من المستحيل هنا أن يشك المرء في أن الضوء مُجسَّم،

(١) أحد أقدم مسارح موسكو، وقد افتتح عام ١٩٢٣.

حتى إن الغبار الذي حمله هذا الضوء كان المرء ليظنه ناتجًا عن ترددات الإثير. ها هو الزقاق الذي يصل بين شارعي تفيرسكايا ونيكيتسكايا. وقفا لبرهة ينظران بإعجاب إلى السياج المغطى بالأزهار. دخلا من البوابة وصعدا درجات السلم الخشبية حتى وصلا إلى صالة المعرض المصقولة، وبدت كئيبة وفي الآن ذاته زاهية من كثرة ألواح النوافذ الزجاجية ومرأى السماء الذي لاح من شقوق شعريات هذه النوافذ.

تناثرت صفحة السماء إلى طبقات من درجات زرقاء مختلفة بدت قريبة للناظِر. تحطم ربع الألواح الزجاجية. عبر صف النوافذ الصغيرة السفلي تسللت حواف نبات أخضر يزحف إلى الخارج بطول المعرض. هنا كان كل شيء جاهزًا لتحقيق طفولة سعيدة. في مثل هذه المعارض يربون الأرانب.

توجه إيفان صوب الباب. تضمن المكان ثلاثة أبواب. توجه إيفان صوب الأخير.

في طريقهما أراد إيفان أن يقطف واحدة من هذه الحواف. ما إن جذبها حتى امتد النظام المخفي كاملا خلف هذه الحافة، وتعالى أنين ساق تورط في حياة هذا اللبلاب، أو ربما هو شيء

آخر لا يعرفه سوى الشيطان وحده. كما لو أن المنظر ليس في موسكو بل في إيطاليا! بذل كافاليروف جهده وضغط صدغه على لوح النافذة ورأى الساحة المُسيَّجة بجدار حجري. كان المعرض في الأعلى بين الطابقين الثاني والثالث. واصل المشهد ظهوره كأنه في إيطاليا، ولاح لإيفان من هذا الارتفاع مرأى ملعب صغير أخضر مريع.

لم يكد يدخل الرواق حتى سمع أصواتًا وضحكًا. هرعا خارج المكان، ولم يستطع أن يفهم شيئًا، وقد شتت إيفان انتباهه، وقرع الأخير بابًا؛ مرة فالثانية فالثالثة... تمتم:

- لا أحد هنا. إنها بالفعل هناك.

ظل انتباه كافاليروف مُوجَّها صوب الزجاج المكسور على المرج. لماذا؟ على كل حال لم يحدث بعد أي شيء مدهش أمام عينيه. كل ما لاحظه أثناء قرع إيفان للباب هو خطوة واحدة من حركة متباينة؛ ضربة واحدة على الباب على إيقاع رياضي. ببساطة بدت خضرة المرج لطيفة ومحببة وباردة للنظر ومفاجئة خاصَة عند رؤيتها بعد هذه الساحة العادية. في كل الاحتماليات لم يدرك أن فتنة المرج قد أسرته بهذه القوة إلا في وقت متأخر. كرر إيفان بابيتشيف:

- لقد رحلت فعلا! اسمح لي أن...

ونظر من واحدة من هذه النوافذ الصغيرة، ولم يتباطأ كافاليروف في فعل الأمر ذاته.

ما بدا له مرجًا اتضح أنه باحة صغيرة مرصوفة مغطاة بالعشب. نبعت القوة الرئيسة لهذه الخضرة من تلك الأشجار العالية الكثيفة الموجودة على جانبيها. أينعت كل هذه الخضرة تحت الجدار الضخم والأصم للمنزل. كان كافاليروف يراقب المنظر من أعلى، وكانت رؤيته للباحة الصغيرة دقيقة. لاحت له المنطقة بأكملها الممتدة بعيدًا عن باصريه كأنها جاثمة فوق تلك الباحة الصغيرة. استلقت أمام عينيه كسجادة مفروشة على أرض إحدى الغرف المكتظة بالأثاث. باحت أسطح غريبة بأسرارها لكافاليروف. رأى دوارة الريح على شكل ديك بحجمها الطبيعي، كما رأى نوافذ سقف صغيرة لا تراود الشكوك حيالها أحد بالأسفل، كما رأى كرة طفل؛ تلك الكرة المتعذر إصلاحها دائمًا، والتي تدحرجت ذات مرة من ارتفاع شديد لتسقط في المزراب. بدا له كما لو أنه يرى بنايات زُوِّدت بقرون استشعار بارزة خرجت عن نطاق الباحة الصغيرة بعدة خطوات. ضربت قبة الكنيسة المطلية بأحمر قاتم الفراغ الكامن بالسماء، وبدت

كما لو أنها تطير حتى غابت عن باصري كافاليروف. رأى سارية الترام آتيًا من شارع بعيد، ومراقب آخر للمنظر قد أطلَّ من نافذته البعيدة، يشم أو يأكل شيئًا ما، وقد دخل إلى منظور المشهد، وبدا كما لو أنه يستند تقريبًا إلى السارية ذاتها.

كانت الباحة الصغيرة هي أساس المشهد.

هبطا درجات السلم. كانت ثمة فتحة في الحائط الحجري الذي يفصل الفناء عن الباحة الصغيرة، ويفصل الفناء الموحش المهجور عن تلك الخضرة الفاتنة. كانت بضعة أحجار مفقودة منه، كأرغفة خبز أخرجوها حالًا من الفرن. رأيَا كل شيء عبر هذه الفتحة. أضاءت الشمس وجه كافاليروف بقوة، ورأيَا أداء تمرينات على القفز؛ حبل ممتد بين عمودين وشاب قد طار حاملا جسده فوق الحبل من الجانب، يكاد ينزلق عليه بعد أن أصبح جسده موازيًا تقريبًا للحبل. بدا الأمر وكأنه لم يكن يقفز؛ بل ينزلق من فوق الحبل كما لو من فوق موجة. أثناء انزلاقه هذا بسط قدميه كسبّاح يشق طريقه عبر المياه. في جزء آخر من الثانية لمع وجهه المشوه المضطرب موجهًا لأسفل، وهنا رآه كافاليروف قد انتصب على الأرض، ولسبب غير معلوم أصدر عند اصطدامه بالأرض صوتًا يشبه «أفف» مزيج بين زفير نفس مقطوع وصوت ضربة الكعب على العشب.

قرص إيفان كافاليروف من مرفقه هامسًا:

- ها هي... انظر!

انخرط الجميع في الصياح والتصفيق. تنحى القافز جانبًا، وكان عاريًا تقريبًا، يعرج بشكل طفيف على أحد قدميه، ولا بد أن ذلك نوع من تدلل الرياضيين.

كان هذا هو فولوديا ماكاروف.

ارتبك كافاليروف، واستولى عليه شعور بالخجل والخوف. ابتسم فولوديا، وكشفت ابتسامته عن ماكينة أسنان كاملة لامعة.

تصاعد بالأعلى صوت طرق على الباب مجددًا من المعرض. التفت كافاليروف. كان من الغباء الشديد أن يراه أحد هنا واقفًا عند الجدار يختلس النظر. شخص ما يسير على أرضية المعرض. تُمزِّق النوافذ الصغيرة مرأى المشهد. أجزاء أجساد تتحرك بمفردها، ويحدث خداع بصري، فتبدو الرؤوس وكأنها تسبق أجسادها. يتعرف كافاليروف على إحدى الرؤوس؛ أندريه بابيتشيف يطفو فوق أرضية المعرض.

صاحت فاليا من على المرج:

- أندريه بتروفيتش! أندريه بتروفيتش! هنا! هنا!

اختفى الضيف المريع. إنه يترك المعرض ويبحث عن الطريق صوب المرج. حواجز مختلفة تحجبه عن عيني كافاليروف. لا بد من الركض. رن صوت فاليا:

- هنا! هنا!

يرى كافاليروف الآتي: فاليا واقفة في المرج وقد باعدت بين ساقيها وثبّتتهما على الأرض بقوة. ارتدت سروالا أسود قصيرًا مختارًا بعناية، يكشف عن بنية الساق بوضوح. ارتدت أيضًا حذاءً رياضيًا أبيض اللون على قدميها العاريتين، وحقيقة أن نعلي الحذاءين كانا مسطحين يجعل وقفتها أكثر صلابة وإحكامًا... لم تكن وقفة نسائية، بل رجالية أو طفولية. لاحت ساقاها لامعتين قد سفعتهما الشمس. هاتان ساقا فتاة تعرضتا كثيرًا للهواء والشمس وصعدتا تلالًا كثيرة، ووطأتا العشب مرارًا وتعرضتا لعصفات الريح حتى أنهما قد اخشوشنتا وغمرتهما ندوب شمعية تقشرت قشورها قبل الأوان بفعل الفرك... هاتان ساقان اخشوشنت ركبتاهما كبرتقالتين. العمر والثقة اللا واعية في مدى قوة جسدها يمنحان صاحبتهما الحق في عدم العناية بساقيها بهذه الطريقة. لكن رقة ونظافة الجسد من فوق السروال الأسود تكشف كم ستبدو صاحبته فاتنة عندما يينع جسدها

وتتحول إلى امرأة بالغة؛ عندما تُبدي العناية الكافية بنفسها وتود أن تزين هذا الجسد؛ عندما تلتئم آثار الجروح تمامًا وتسقط آخر القشور ويزول لون لفحة الشمس ويعود لون الجسد إلى طبيعته.

لملم شتات نفسه وركض بامتداد الجدار العاري في الاتجاه المعاكس لفتحة الجدار، ملطخًا كتفه بالجدار الحجري. ناداه إيفان:

- إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين تهرب؟ انتظر!

هلع كافاليروف وقال في نفسه: «إنه يصيح عاليًا! سوف يسمعونه. سوف يرونني!»

وفعلا ساد هدوء شديد خلف الجدار. أنصت الناس هناك السمع. أمسك إيفان بكافاليروف.

- اسمع يا عزيزي. أرأيت؟ هذا هو أخي! أرأيت؟ فولوديا وفاليا... جميعهم... الصحبة كلها هنا. انتظر، سوف أتسلق الحائط الآن وأسبهم جميعًا. لقد لطخت نفسك يا كافاليروف كالطحان.

قال كافاليروف بهدوء:

- أنا أعرف أخاك تمامًا. هو من طردني. هو الشخصية

المهمة التي حدثتك عنها. إن مصيرنا متشابه. قلت أني يجب أن أقتل أخاك... ماذا تريدني أن أفعل؟

جلستْ فاليا فوق الجدار الحجري. صاحت:

- بابا!

عانق إيفان ساقيها المتدليتين على الجدار وقال متنهدًا:

- فاليا... افقأي عينيَّ. أريد أن أصبح ضريرًا. لا أريد أن أرى شيئًا؛ لا أريد أن أرى مرجًا أو غصونًا أو زهورًا أو فرسانًا أو جبناء... يجب أن أصبح ضريرًا يا فاليا. لقد أخطأت يا فاليا... ظننت أن كافة المشاعر قد ماتت: الحب والإخلاص والحنان... لكن كل شيء بقي يا فاليا، ولكن للآخرين لا لنا... لم يتبق لنا شيء سوى الحسد. افقأي عينيَّ يا فاليا، أريد أن أصبح ضريرًا.

انزلق على قدمي الفتاة المتعرقتين بيديه ووجهه وصدره، وسقط بشدة على الجدار أسفل قدميها.

قالِ إيفان:

- فلنشرب يا كافاليروف... لنشرب نخب الشباب الذي انقضى، فلنشرب نخب وهج المشاعر الذي

انطفأت... فلنشرب نخب الآلة غير الموجودة والتي لن توجد أبدًا...

جذب كافاليروف إيفان من ياقتي قمصه قائلا:

- آآه يا ابن الكلب يا إيفان بتروفيتش! لا، لم ينقض الشباب... لم ينقض بعد. أتسمعني؟ هذا كذب. سأثبت لك ذلك غدًا، أتسمعني؟ غدًا سوف أقتل أخاك أثناء مباراة كرة القدم.

-٨-

شغل نيكولاي كافاليروف مكانًا في المدرجات. جلستْ فاليا أعلاه، على اليمين، في كوخ خشبي وسط الرايات وملصقات ضخمة وسلالم وعوارض خشبية متقاطعة. كان الكوخ ممتلئًا بالشباب.

هبَّت الريح، وكان نهارًا ساطعًا جدًا وصافيًا، تهب فيه الرياح من كل جانب. لمع الملعب الأخضر الكبير المغطى بالنجيلة كالورنيش.

لم يرفع كافاليروف عينيه عن الكوخ حتى أجهدهما، وأثناء

شعوره بالتعب كان يعمل مخيلته، محاولا تصور ما لم يستطع رؤيته أو سماعه. لم يكن وحده من فعل ذلك، فكثيرون من الجالسين بالقرب منه كانوا في قمة الاستثارة من مراقبتهم لهذا العرض الاستثنائي، ووجهوا كامل انتباههم إلى تلك الفتاة الصغيرة الفاتنة التي ظهرت بفستان وردي، وبدتْ في وقفتها وحركاتها لا مبالاة طفولية، وفي الآن ذاته كان لها تلك النظرة التي ود الجميع لو تُوجَّه إليهم، كما لو أنها شخصية شهيرة أو ابنة شخصية شهيرة.

امتلأ الاستاد باثني عشر ألفًا من المشاهدين. حل اليوم عيد غير مسبوق؛ إنها تلك المباراة التي طال انتظارها بين فرقة موسكوفية وأخرى ألمانية.

تجادل المشاهدون في المدرجات وصاحوا وتشاجروا بسبب أمور تافهة. اقتحم عدد ضخم من الناس الاستاد حتى امتلأ عن آخره، وحطموا الدرابزون في أحد المواضع وانطلقت منهم صيحة تشبه صوت البطة. أما كافاليروف، وبينما كان يبحث عن مكانه غارقًا وسط ركاب غريبة، رأى رجلًا عجوزا محترمًا يرتدي صديرية بلون القشدة، مستلقيًا على الممشى أسفل المدرجات يتنفس بصعوبة باسطًا ذراعيه. مروا من جانبه دون

أن يفكروا فيه تقريبًا. ازدادت حدة الاضطراب بفعل الرياح. بدت الأعلام في الأعلى كالبرق.

كان كامل كيان كافاليروف موجَّهًا صوب الكوخ الخشبي. علته بما يقارب ٢٠ مترًا. هزأتْ به قوة بصره. بدا له أن أعينهما تلتقي. حينها قام من جلسته. بدا له أن ثمة قلادة تتوهج على صدرها وأن الريح تفعل بها ما يريد. أمسكت بقبعتها مرارًا وتكرارًا. كانت قلنسوة من قش أحمر لامع. عصفت الريح بأكمامها حتى مستوى الكتف، كاشفة عن الذراع النحيلة كآلة الفلوت. طار الملصق الإعلاني من يدها وسقط على الأرض بعد أن رفرف بجناحيه.

قبل إجراء المباراة بشهر افترضوا أن اللاعب الشهير جيتسكي سوف يلعب مع فريقه الألماني في مركز المهاجم الرئيس، حيث إنه المهاجم الرئيس وسط خمسة مهاجمين. جاء جيتسكي فعلا. ما إن بدأ الفريق الألماني يتحرك صوب الملعب مع أصوات نشيده الوطني، وقبل أن يصل اللاعبون إلى أرضية الملعب، حتى تبين الجمهور شخصية اللاعب الشهير، رغم أنه كان يسير وسط بقية الضيوف.

أخذوا يصيحون «جيتسكي! جيتسكي!» شاعرين بفرحة خاصة بسبب رؤية اللاعب الشهير وتصفيقهم المتواصل له.

بدا جسد جيتسكي ضئيلا، أسمر اللون، محني الكتفين. خطا بضعة خطوات صوب الزاوية ثم توقف ورفع يده فوق رأسه وتمطع. هذه الطريقة الغريبة لتحية الجمهور زادت من حماستهم.

لمع الأحد عشر لاعبًا على أرضية الملعب الخضراء وسط الهواء النقي بثيابهم ذات الألوان الزيتية اللامعة. كانوا يرتدون قمصانًا محكمة برتقالية اللون، بل ذهبية تقريبًا بأوشحة (خضراء - بنفسجية) على الجانب الأيمن للصدر، وسراويل قصيرة سوداء، وكانت الأخيرة تخفق بفعل الريح.

أما فولوديا ماكاروف، والذي ارتجف بعض الشيء إثر لمسة قميصه الجديد، ظهر من شباك سكن اللاعبين. وصل الألمان إلى منتصف الملعب. سأل:

- هل نذهب الآن؟ هل نذهب؟

أصدر مدرب الفريق أمره:

- لنذهب!

ركض أفراد الفريق السوفيتي بقمصانهم الحمراء وسراويلهم القصيرة البيضاء. وقع بعض المتفرجين من فوق الدرابزون ودقوا بأقدامهم على الألواح الخشبية.

غرقت أصوات الموسيقى وسط ضجيج الجمهور.

قضت القرعة بأن يلعب الألمان في الشوط الأول مع اتجاه الريح.

لم يكتف فريقنا باللعب وحسب، بل بذلوا قصارى جهدهم وفعلوا كل ما كان يُفترض بهم أن يفعلوه ليلعبوا بأفضل مستوى ممكن، لكنهم في الآن ذاته لم يتوقفوا عن مراقبة لعب الألمان كمتفرجين وتقييمه كمحترفين. استمر اللعب تسعين دقيقة تخللتها استراحة قصيرة بعد انقضاء ٤٥ دقيقة. بعد الاستراحة تبادل الفريقان أماكنهما بالملعب. في طقس عاصف كهذا يكون من الأفضل أن تلعب ضد الريح حين تكون قوتك لم تُستنزف بعد.

نظرًا لأن الألمان لعبوا في البداية مع اتجاه الريح، وكانت الريح قوية جدًا، انحصر اللعب كاملا بالقرب من مرمانا. لم تفارق الكرة نصف ملعبنا تقريبًا. ضغط المدافعون بقوة متوهجة

وقاموا بهجمات مرتدة، لكن الكرة الصفراء اللامعة كانت تعود إلى الجهة المعاكسة بفعل جدار الريح. هاجم الألمان بضراوة. تبين أن اللاعب الشهير جيتسكي خطير بالفعل. تركز الانتباه كاملا عليه.

عندما كانت الكرة تصله كانت فاليا تصيح كأنها ترى فعلًا إجراميًا مريعًا! اخترق جيتسكي دفاعنا تاركًا المدافعين من خلفه بفضل سرعته واندفاعه وصوَّب على المرمى. حينها مالتْ فاليا إلى الواقف بجانبها وطوَّقته بذراعيها ضاغطة وجنتها عليه، وقد انحصر تفكيرها في أمر واحد؛ أن تخفي وجهها ولا ترى هذا المشهد المريع، رغم أنها راقبت بطرف عينيها حركات جيتسكي المريعة الذي لاح أسود اللون من فرط الركض وسط الحرارة.

لكن فولوديا ماكاروف، حارس الفريق السوفيتي، استطاع الإمساك بالكرة. لم يكن جسد جيتسكي قد استقر بعد من جراء ركلته، لكنه غيَّر وضعيته بدلال إلى الناحية الأخرى اللازمة له والتفت وركض، حانيًا ظهره الذي غطاه بإحكام قميصه الذي اسود بفعل العرق الغزير. حينها عادت فاليا إلى وقفتها الطبيعية وبدأت تضحك. السبب الأول لضحكها كان شعورها بالرضا من أن الكرة لم تخترق مرمانا. السبب التالي لضحكها

كان تذكرها أنها منذ لحظات صاحت وأمسكت بذراع الواقف بجانبها.

صاحت بكل قوتها:

- ماكاروف! ماكاروف! برافو يا ماكاروف!

في كل دقيقة كانت الكرة تطير إلى المرمى وتُصد، كانوا يتأوهون ويتساقط الجير من على ثيابهم... كان فولوديا يلتقط الكرة بحركة طائرة حينما يبدو الأمر غير ممكن حسابيًا. بدا الجمهور والمدرجات الغاصة بهم كأنهم أكثر وضوحًا، حيث نهض كل مشاهد من مكانه مدفوعًا برغبة مريعة نافدة الصبر لرؤية أكثر ما يمتعهم؛ إحراز الهدف. بدأ الحكم يُوجِّه صفارته صوب شفتيه ليستعد لإطلاقها معلنًا إحراز الهدف... لم يُمسك فولوديا بالكرة، بل تصدى لها أثناء طيرانه بشكل بدا كأنه يخالف قوانين الفيزياء، مُعرِّضًا نفسه لأثر مذهل لقوى غاضبة، وطار ملتفًا حول الكرة، وبدا حرفيًا كما لو أنه برغي قد رُبِط بها تمامًا. أحاط الكرة إذن بكل جسده؛ بركبتيه وبطنه وذقنه، معطلًا سرعة الكرة بفعل وزنه، كما يطفئون النار بضربها بالخرق. أفضت سرعة اصطدام الكرة بفولوديا إلى إلقائه مسافة مترين

جانبًا، وبدا سقوطه كسقوط قنبلة ورقية ملونة. ركض مهاجمو الخصم صوبه، لكن في النهاية لم تعد الكرة في أرض المعركة.

ظل فولوديا عند مرماه. لم يستطع الوقوف ساكنًا. سار على خط المرمى من عارضة للأخرى كابحًا جماح طاقته التي استثارها صراعه مع الكرة. طن كل شيء بداخله. حرَّك يديه ونفض ثيابه مزيلا بقايا النجيلة من على حذائه. الثياب التي لاحت أنيقة قبل المباراة أصبحت الآن مجموعة من الخرق، وبدا الجسد وقفاز حارس المرمى بلون أسود. لم تستمر هذه المهلة طويلا، وهاجم الألمان مجددًا مرمى الفريق الموسكوفي. أراد فولوديا بشدة أن ينتصر فريقه، وكان ينفعل جدًا مع كل لعبة. اعتقد أنه الوحيد الذي يعرف كيف يجب أن يتم اللعب ضد جيتسكي، وما هي نقاط ضعفه، وكيف يجب أن يكون الدفاع ضد هجماته. كان مهتمًا أيضًا بالرأي الذي كوَّنه اللاعب الألماني الشهير عن الفريق السوفيتي. عندما صفَّق وصاح صيحة النصر «أورا!» لظهيريه، أراد أن يصيح في الآن ذاته لجيتسكي قائلا: «هكذا نلعبِ الكرة! ما رأيك، هل نلعب جيدًا أم لا؟»

اعتبر فولوديا نفسه لاعب كرة مكافئ تمامًا لجيتسكي. كان فولوديا رياضيًا محترفًا، وكان الآخر لاعبًا محترفًا. ما شغل

فولوديا كان مسار المباراة العام، أي النصر، بينما اقتصر سعي جيتسكي على إبراز مهارته. كان لاعبًا قديمًا خبيرًا، لم يعد يشغل باله كثيرًا بدعم مجد فريقه، بل اقتصر اهتمامه على نجاحه الشخصي. لم يكن عضوًا دائمًا بأي هيئة رياضية، وذلك لأنه ظل ينتقل من نادي إلى آخر سعيًا وراء المال. منعوه من المشاركة في المباريات الفاصلة بالبطولات. كانوا يدعونه فقط في المباريات الودية والاستعراضية والمبارات التي تخاض في دول أخرى. اقترنتْ مهارته بحسن الحظ، وكانت مشاركته تُضفي على فريقه خطورة. كان يحتقر اللاعبين، في فريقه وفريق المنافس على السواء. كان يعرف أنه سيسجل أهدافًا في أي فريق، ولم يكن يهمه أي شيء آخر... لاعب داهية.

قرابة منتصف المبارة كان قد اتضح بالفعل للمشاهدين أن الفريق السوفيتي لن يستسلم لنظيره الألماني. لم يستطع الأخير تنفيذ هجمات سليمة، فقد حال جيتسكي دون حدوث ذلك؛ أفسد خطط لعبهم وحطمها تمامًا. كان يلعب لنفسه وحسب؛ يلعب بطرق فردية تمامًا دون أن يتلقى عونًا أو يقدمه. بعد أن وصلته الكرة، كثَّف كافة حركات اللعبة بداخله وضغطها في الكرة، وبدأ يطلقها، يناور وينتقل من جانب لآخر طبقًا لخططه

الخاصة غير الواضحة لرفاقه، آملا أن يتمكن بركضه وقدراته وحده وحسب من مراوغة العدو.

هنا استنتج المشاهدون أن شوط المباراة الثاني بما سيتضمنه من شعور جيتسكي بالإنهاك ومواتاة حركة الريح لفريقنا لا بد أنه سينتهي بدحر الألمان. كل ما هو مطلوب الآن أن يتماسك الفريق ولا يسمح بإحراز هدف واحد في مرماه.

لكن في تلك المرة استطاع جيتسكي المبدع أن يحقق مراده ثانية. قبل نهاية الشوط الأول بعشرة دقائق انطلق إلى الجانب الأيمن وقد استلم الكرة على جسده ثم توقف فجأة؛ فأفلت من مراقبة مطارده الذي لم يتوقع هذا التوقف المفاجئ، وبالتالي واصل ركضه صوب الأمام واليمين، ثم انعطف جيتسكي بالكرة صوب منتصف الملعب حيث كانت المساحة فارغة ولم يجد سوى مدافع واحد ليراوغه. ركض بالكرة مباشرة صوب المرمى، تارة ينظر صوب الكرة عند قدمه وتارة ينظر إلى المرمى، كما لو أنه يحسب سرعة واتجاه ركلته صوب المرمى.

هدرت صيحة متواصلة «أوووه» من المدرجات.

استعد فولوديا لإمساك الكرة فاتحًا ذراعيه ومادًا إياها كما

لـو كان يمسـك برميلا غير مرئـي. لـم يسـدد جيتسـكي وركـض صـوب المرمى. ألقى فولوديا نفسـه أسـفل قدميه. تـوارت الكرة بينهمـا كمـا لو أنهـا اختفت داخل برميل، ثم سـاد صفير وضجيج الجمهـور علـى نهايـة المشـهد. طـارت الكـرة إثر ضربـة أحدهمـا فوق رأس جيتسـكي، فضربها برأسـه صوب الشـباك منحنيًا كمن ينحني بالتحية.

بهذه الطريقة أُحرِز هدف في مرمى الفريق السوفيتي.

ضج الاستاد. وُجِّهت النظارات المكبرة صوب مرمى الفريق السـوفيتي. أمـا جيتسـكي، وبينمـا كان ينظـر إلـى حذائه اللامـع، ركض بدلال صوب نصف الملعب.

أنهض الرفاق فولوديا.

-٩-

التفتـتْ فاليـا مثلمـا فعـل الجميـع. رأى كافاليـروف وجههـا مُوجهًـا ناحيتـه. لم يشـك أنهـا تراه. بـدأ يهتاج وقد أصبـح غاضبًا إثـر افـتراض خاطـئ. بـدا لـه أن المحيطيـن بـه قـد بـدأوا يكتمـون ضحكاتهم إثر رؤيته بهذا الاضطراب.

نظر إلى الجالسين بجواره. فوجئ بشدة حينما رأى أندريه بابيتشيف جالسًا في إحدى الزوايا القريبة منه. غضب كافاليروف مجددًا بفعل اليدين البيضاوتين اللتين كانتا تضبطان المنظار المكبر لشخص ذي شاربين مهذبين يرتدي سترة رمادية.

كان المنظار المكبر مُعلقًا على جسد كافاليروف كقوقعة سوداء. تدلت سلسلة المنظار من وجنتي بابيتشيف كعنان الجواد.

كان الألمان قد عاودوا الهجوم مجددًا.

فجأة طارت الكرة بفعل ضربة جبارة غير محسوبة عاليًا منحرفة عن الملعب والمباراة في اتجاه كافاليروف، وصفَّرت فوق الرؤوس المحنية للصفوف السفلية، وتوقفت للحظة وبدأت تدور بكل محيطها وسحقت اللوح الخشبي المستندة إليه قدما كافاليروف. توقف اللعب. تجمد اللاعبون في أماكنهم بفعل المفاجأة. تحجرت فجأة صورة الملعب الخضراء المبرقشة التي كانت تتحرك طوال الوقت، كفيلم توقف بانقطاع مادته، في الوقت الذي كان النور فيها يغمر القاعة ولم يُتح الوقت للعامل ليطفئ النور، وبالتالي يرى الجمهور لقطة بيضاء غريبة

وخطوط جسد البطل جامدًا تمامًا في تلك الوضعية المعبرة عن حركة سريعة.

اشتدت ضغينة كافاليروف. ضحك جميع من حوله. دائمًا ما كان سقوط الكرة وسط صفوف الحاضرين يثير الضحك، كأنهم يدركون في تلك اللحظة مدى هزلية الموقف الذي يواصل فيه اللاعبون الركض حول الكرة لساعة ونصف، مُجبِرين جمهورًا لا علاقة له بالأمر على متابعة لهوهم غير الجاد على الإطلاق بكل هذا الاهتمام والحماسة.

في تلك اللحظة وجَّه آلاف المتفرجين انتباههم كاملا صوب كافاليروف بشكل غير مبرر، وكان هذا الانتباه في حد ذاته مُضحكًا.

ربما ضحكتْ فاليا منه؛ من إنسان وجد الكرة سقطت لديه. ربما حظتْ بمتعة مضاعفة؛ السخرية من وقوع الخصم في هذا الموقف المضحك. تكلفَ الابتسام وأبقى قدمه بعيدة عن الكرة التي بعد أن فقدت ارتكازها التصقت بكعبه مجددًا بمكر.

صاح بابيتشيف بدهشة وتلقائية: «حسنًا...»

كان كافاليروف بليدًا تجاه الموقف. امتدت يدان بيضاوتان

كبيرتـان صـوب الكـرة. رفعهـا أحدهـم وسـلَّمها لكافاليـروف. نهض من جلسته وشد بطنه ووضع يديه خلف رأسه إشارة إلى أنه سيلقي بالكرة بعيدًا. لم يكن قادرًا على التعامل بجدية مع هذا الأمر، مدركًا في الآن ذاته أن عليه أن يكون جديًا، وبالتالي غالى في إبراز تعبير الجدية على وجهه، فاكفهر وجهه ونتأت شفتاه الحمراوتان النضرتان.

بعد أن اهتز بابيتشيف بشدة صوب الأمام، قذف الكرة لتقفز بطريقة ساحرة على أرضية الملعب. كتم كافاليروف غضبه بداخله قائلا في نفسه «إنه لم يعرفني!»

انتهى شوط المباراة الأولى بنتيجة (١ - صفر) لصالح الفريق الألماني. سار اللاعبون صوب ممر الخروج بأوجه داكنة تعلوها بعض بقايا خضراء من نجيلة الملعب... ساروا برُكَبَهم العارية بقوة وبخطوات واسعة كما يتحرك المرء وسط المياه. أما أفراد الفريق الألماني الذين اتسموا بحمرة لا نجدها عند الروس، تبدأ من الصدغين، فقد اختلطوا بأفراد الفريق الروسي أثناء الخروج. سار اللاعبون جميعًا في كتلة واحدة مبرقشة تحت ألواح الممر دون أن يكون بالإمكان تمييز أي منهم على حدة. أضفوا على الحشد ابتسامات وأعين صافية ساكنة بدلا من أوجههم القاتمة.

أولئك من كانوا يبدون بأجساد صغيرة تركض وتلوح بألوان مختلفة، أصبح بالإمكان رؤيتهم الآن عن كثب. نقلوا معهم أصوات الملعب التي لم تبرد بعد. سار جيتسكي الشبيه بغجري يمص جرحًا أصابه حالا أعلى مرفقه.

الجديد بالنسبة للمتثائبين الكسالى كان رؤية تفاصيل طول أو بنية هذا اللاعب أو ذاك، وقساوة الخدوش والأنفاس المقطوعة واضطراب الثياب تمامًا على أجساد أصحابها. كل شيء من بعيد يترك انطباعًا أخف وأكثر احتفالية.

انحشر كافاليروف بين خواصر الآخرين تحت أحد القضبان ووطأ العشب بارتياح. هنا في الظل ركض بصحبة الآخرين على الطريق، ملتفًا حول الجزء الخلفي من المدرجات. في لحظة واحدة امتلأ الكانتين الذي أقاموه فوق المرج تحت الأشجار. كان العجوز الصغير ذو الصديرية بلون القشدة لا يزال ينظر بحذر وعدم رضا إلى الجمهور بينما يتناول المثلجات. احتشد بعض الجمهور بالقرب من المكان المخصص للاعبين.

انطلقت الصيحات الاحتفالية من هناك «أورا ماكاروف... أورا!» تسلق المعجبون السياج، مصارعين الأسلاك الشائكة

مصارعتهم للنحل، وتأرجحوا بالأعلى على الأشجار ذات اللون الأخضر الدكن؛ تأرجحوا بفعل الريح والمهارة كأقزام الغابة.

طار جسد تلمع أجزاؤه العارية بانحراف فوق الحشود. كانوا يؤرجحون فولوديا ماكاروف. لم يتجرأ كافاليروف على اختراق حلقة النصر هذه. لمح بعض الشقوق وسط الحشود فمر من بينها.

انتصب فولوديا، وقد سقط الجورب عن أحد قدميه كاشفًا عما يبدو ككعكة خضراء حول عضلة السمانة كمثرية الشكل والمشعرة بعض الشيء. بقى قميصه غير المهندم بالكاد على جسده. طوى ذراعيه ببساطة على صدره.

ها هي فاليا، وبصحبتها أندريه بابيتشيف.

يصفق المتثائبون لثلاثتهم.

ينظر بابيتشيف إلى فولوديا بولع.

هبت ريح. سقط مشجب مخطط، واهتزت أوراق الشجر جميعًا صوب اليمين. تفرقت حلقة المتثائبين وتشوش المنظر بأكمله واحتمى الناس من الأتربة. أصابت الأتربة فاليا أكثر

من غيرها. طار فستانها الوردي الخفيف فوق ساقيها كقشرة خارجية، وقد بيَّن لكافاليروف مدى صفاءهما. طيَّر الهواء فستانها على وجهها ورأى كافاليروف خطوط وجهها عبر بريق الأقمشة نصف الشفافة المنبسطة كالمروحة. رأى كافاليروف هذا عبر الأتربة، ولاحظ وكيف دارت بينما تحاول إمساك فستانها وتعثرت وكادت أن تسقط جانبًا. حاولت أن تُثبِّت أهداب الفستان على ركبتيها وتضغطه عليها لكنها لم تستطع، وحينها لجأت إلى تدبير مؤقت بدافع من اللياقة؛ أن تُحيط ساقيها المكشوفتين بذراعيها، مخفية ركبتيها، وقد أحنتْ نفسها على جسدها كمستحمٍّ قد وجد نفسه فجأة مكشوفًا للأعين.

صفَّر الحكم من مكان ما وتصاعدت أصوات الموسيقى العسكرية. بهذا توقف هذا الارتباك المبهج وبدأ شوط المباراة الثاني. استدار فولوديا.

صاح صبي اندفع بالقرب من كافاليروف قائلا:

- لن نرضى بأقل من هدفين في مرمى الألمان!

واصلت فاليا الصراع مع الريح. أصلحتْ وضع حمالتي كتفيها عشر مرات وفي النهاية أصبحت قريبة جدًا من كافاليروف؛ مسافة يمكن منها سماع همسة.

وقفت مباعدة قدميها. أمسكت قبعتها التي طيرها الريح والتقطتها من الهواء. لم تكن قد اعتدلت مجددًا بعد قفزتها حتى نظرت إلى كافاليروف دون أن تتعرفه، وقد أمالت رأسها قليلا بشعرها الكستنائي المقصوص المائل على وجنتيها.

تسلل شعاع الشمس إلى كتفها، واهتزت ولمعت الترقوتان كخنجرين صغيرين. ظل كافاليروف يحدق فيها لمدة عشر دقائق، وأصابته قشعريرة وسرعان ما أدرك أي حزن يتعذر علاجه سيبقى بداخله إلى الأبد لأنه رآها؛ رأى كيان هذا العالم الآخر الغريب غير العادي، ولأنه أدرك كيف كانت نظرتها رقيقة رقة غير عادية، وكم هي براءتها ساحقة، ولأنها فتاة صغيرة، ولأنها تحب فولودياأوكيف تشكل إغواءً يتعذر الخلاص منه.

كان بابيتشيف في انتظارها وقد مد إليها ذراعه قائلا:

- فاليا! كنت أنتظرك طوال حياتي. أشفقي عليَّ!

لكنها لم تسمعه. ركضت تحت ضربات الريح.

عاد كافاليروف إلى المنزل في تلك الليلة ثملا.

سار عبر الرواق صوب الحوض ليشرب. فتح الصنبور على آخره وغمره الماء. ترك الصنبور بعد أن تبلل تمامًا. دخل إلى غرفة أنيتشكا ثم توقف. لم يكن الضوء مطفئًا. جلست الأرملة على فراشها الضخم متدثرة بدثار قطني أصفر. كانت تستعد للنوم. خطا كافاليروف داخل الغرفة. ظلت صامتة كالمسحورة. بدا لكافاليروف أنها تبتسم وتشير إليه.

توجه إليها...

لم تعارضه، بل إنها فتحت ذراعيها له. همست:

- آآه منك يا كاسر الجوز الصغير(١)! آآه منك!

استيقظ لاحقًا. استيقظ والعطش يمزقه، ثملا، معذبًا بحلم غاضب ينشد فيه ماءً. خيَّم الهدوء على المكان. قبل استيقاظه بثانية تذكر كيف تدفق الماء من الصنبور. انتفض من حدة الذكرى دون ماء! تهاوى ثانية. باشرت الأرملة أعمالها المنزلية أثناء نومه: أغلقت الصنبور وخلعت ثياب النائم وعدَّلت وضع

---

(١) طائر كاسر الجوز أو طائر النمنمة كاسر الجوز، هو من فصيلة الطيور المغردة.

حمالاته. حلَّ الصباح. في البداية لم يستوعب كافاليروف شيئًا. بدا كمتسول ثمل في مسرحية كوميدية، اختاره أحد الأثرياء وجلبه إلى قصره، فنام مخدرًا وسط ترف غريب عنه. رأى انعكاسه الجديد على المرآة على بعد أقدام منه. استلقى بترف طاويًا يديه خلف رأسه. ألقت الشمس ضوءها على جانبه. أبحر وسط خيوط الضوء المتبخرة الواسعة كأنه تحديدًا واقفًا عند قبة الهيكل. من فوقه عناقيد عنب مدلاة وكيوبيدات ترقص ووفرة من التفاح قد برزت من القرون[١]، واستمع إلى نغمات أرغن احتفالية قد انبعثت من كل هذا... كان نائمًا على فراش أنيتشكا.

تمتمت أنيتشكا بحرارة بعد أن مالت صوبه:

- أنت تُذكِّرني به.

تدلى فوق الفراش بورتريه مصقول. كان بورتريه رجل؛ جد صغير لأحدهم، في ثياب احتفالية؛ واحدة من أحدث سترات عصره. كان المرء يشعر أمامها بالآتي: لهذا الشخص مؤخرة رأس قوية ناتئة. رجل تبلغ سنوه خمسين عامًا. تذكر كافاليروف: أب يغير قميصه[٢]...

---

(١) إناء شبه مخروطي يستخدم للشراب أو لإراقته

(٢) إشارة إلى ما ورد عن أبيه في الفصل السادس من الجزء الأول.

تُكرر أنيتشكا بينما تحتضن كافاليروف:

- أنت تذكرني جدًا بزوجي.

تأخذ رأس كفاليروف صوب إبطها الذي يبدو كخيمة. كشفت الأرملة خيمة إبطها، فإذا فرح وخزي يحتدمان فيها.

- أخذني هو الآخر بهذه الطريقة... بمكر... بهدوء، ظل صامتًا... صامتًا، ولم ينبس بشفة، ثم... آآه منك يا كاسر الجوز الصغير!

ضربها كافاليروف.

صُعِقت! قفز كافاليروف من على الفراش وقد ردَّت طبقات الفراش من مكانه وانجذبت الملاءات خلفه. هرعت أنيتشكا صوب الباب تشيح بذراعيها طالبة النجدة. ركضت تلاحقها أغراضها المنزلية، كامرأة من بومبي[1]. تلفت إحدى السلال ومال المقعد.

ضربها عدة مرات على ظهرها وحقوها الممتليء بالدهون كإطار.

---

(١) بومبي أو پُمْپِيي هي مدينة رومانية كان يعيش فيها حوالي عشرون ألف نسمة، واليوم لم يبق من المدينة إلا آثارها القديمة. تقع المدينة على سفح جبل بركان فيزوف

مالت الطاولة على إحدى قدميها. قالت مبتسمة وسط دموعها:

- كان يضربني هو الآخر.

عاد كافاليروف إلى الفراش. انهار عليه شاعرًا بالمرض. ظل في حالة عدم وعي طوال النهار. في فترة المساء استلقت الأرملة بجانبه، وتعالى نخيرها. بدت حنجرتها لكافاليروف كقوس يؤدي إلى ضباب. اختبأ داخل سراديب هذا القوس. ارتج كل شيء؛ ارتجت التربة وانزلق كافاليروف وسقط تحت ضغط الهواء القادم من هاوية ما. دمدمت النائمة بجواره، وتوقفت مرة عن دمدمتها بعد أن أخذت تقضم وتعض بصوت عال. تشوهت بناية حلقها كاملا. أصبح نخيرها ناعمًا كماء الصودا.

انتفض كافاليروف وبكى. نهضتْ وجلبت منشفة مبللة ووضعتها على جبهته. بحث بيده عن مكان البلل، وجعدها أثناء نهوضه من نومته ووضعها أسفل وجنته وقبّلها هامسًا:

- لقد سرقاها. كم يصعب عليَّ العيش في هذا العالم! كم يصعب عليَّ!

نامت الأرملة فورًا دون حتى أن تستلقي كاملا، مستندة إلى

قوس المرآة، ودثَّرها النوم بحلاوته. نامت بفم مفتوح، تبقبق كما تنام العجائز عادة. كان بق الفراش يعيش عليه وتعالت هسهسته كما لو أن أحدهم كان يمزق ورق حائط. ظهرت الآن مخابئ البق التي لا تُرى في النهار. نمت وانتفخت شجرة الفراش وأينعت الوسادة وتجعد الغسق حول الفراش. هبطت الأسرار الليلية من زوايا الحائط وتدفقت حول النائمين وزحفت أسفل الفراش. جلس كافاليروف فجأة وفتح عينيه عن آخرهما. كان إيفان واقفًا على الفراش.

-١١-

بدأ إيفان استعداداته فورًا.

كانت أنيتشكا نائمة في وضع جلوس، مستندة إلى قوس الفراش وقد وضعت ذراعيها على بطنها. نحَّى الدثار عنه بحذر حتى لا يوقظها، ثم لفَّه حول جسده كعباءة ووقف أمام إيفان.

قال الأخير:

- ممتاز! أنت تلمع كسحلية. هكذا ستظهر نفسك للناس. فلنذهب! فلنذهب! علينا بالإسراع.

- أنا مريض جدًا.

تنهد كافاليروف وابتسم ابتسامة قصيرة كما لو أنه يعتذر على عدم رغبته في إخراج سرواله وسترته وحذائه وكأنه يتساءل: «ألا يهم أني حافٍ؟»

كان إيفان قد خرج إلى الرواق بالفعل. هرع كافاليروف خلفه. فكر في نفسه قائلا: »ظللت أعاني طويلا بلا سبب. أخيرًا جاء موعد يوم الكفارة». غمرهما تيار الناس. عند أقرب زاوية لاح أمامهما طريق لامع. قال إيفان: «ها هو!» ممسكًا بيد كافاليروف. ها هو الـ «ربع روبل». رأى كافاليروف حدائق وقببًا كروية من أوراق الأشجار، وقوسًا من حجارة خفيفة صافية ومعرضًا وكرة طائرة فوق النجيلة. أصدر إيفان أمره:

- من هنا!

ركضا بجوار السور المغطى باللبلاب، ثم توجب عليهما القفز. سهّل الدثار الأزرق القفز لكافاليروف، وطفا في الهواء فوق الحشود وهبط على أعرض درجة سلم حجرية. شعر بالخوف مباشرة، وأخذ يزحف ودثاره فوقه، كحشرة قد طوت جناحيها. لم يلحظه أحد؟ جلس خلف الرابية.

كان أندريه بابيتشيف واقفًا أعلى السلم، محاطًا بجمع غفير. محيطًا كتفي فولوديا بيده مقربًا إياه منه. قال أندريه مبتسمًا لأصدقائه:

- سيأتون بها الآن.

حينها رأى كافاليروف الآتي: سار أفراد الفرقة الموسيقية على الطريق الأسفلتي المؤدي إلى درجات السلم، وفاليا تطفو فوقهم. أبقتها أصوات الآلات في الهواء... حملها الصوت. تارة تصعد وتارة تهبط فوق الأبواق بحسب ارتفاع وقوة الصوت. هفهفت أوشحتها فوق رأسها وانتفخ فستانها وانتصبت خصلات شعرها.

عندما وصلوا إلى الممر الأخير ألقوها أعلى السلم؛ فسقطت بين يدي فولوديا. تنحى الجميع ولم يبق سواهما بالدائرة.

لم ير كافاليروف ماذا حدث بعد ذلك. تملكه الهلع فجأة. انتصبت أمامه ظلمة غريبة. استدار ببطء يكاد يتجمد. جلست أوفيليا على العشب من خلفه.

صاح بطريقة غريبة: «آآآآآه». اندفع راكضًا. تعالى رنين أوفيليا وأمسكت به من دثاره، فسقط من عليه. تعثر في هذا

الوضع المخجل وسقط، فاصطدم فكه بحجر. صعد درجات السلم. نظر إليه الناس من أعلى. كانت فاليا واقفة هناك وقد انحنت لتراقب المنظر.

تعالى صوت إيفان:

- أوفيليا... تراجعي! إنها لا تسمعني. أوفيليا... توقفي!

- أمسكوا بها.

- سوف تقتله!

- آآه!

- انظروا! انظروا! انظروا!

التفت كافاليروف إلى الخلف وهو في منتصف السلم. حاول إيفان أن يتسلق الجدار. تمزق اللبلاب وتراجع الحشد. تعلق إيفان على ذراعيه الطويلين المبسوطين. تحرك شيء حديدي مريع ببطء على العشب صوبه. برزت بهدوء مما يمكن أن نسميه «رأس» هذا الشيء إبرةٌ لامعة. صاح إيفان ولم يصمد ذراعاه. سقط وتدحرجت قبعته بين الهندباء[1]. جلس مُسندًا ظهره إلى

---

(١) جنس نباتي ينتمي للفصيلة النجمية. من أنواعه: الهندباء البرية - الهندباء الأنديفية.

الحائط مغطيًا وجهه بيده. تحركت الآلة، ممزقة الهندباء في طريقها.

نهض كافاليروف وصاح بيأس كامل:

- أنقذوه! هل ستسمحون لآلة أن تقتل إنسانًا؟!

ولم يجبه أحد. قال كافاليروف:

- إن مكاني معه. سوف أموت معك يا معلم!

لكن الوقت كان قد تأخر فعلا. بكاء إيفان الأشبه بأرنب أجبره على التعثر. أثناء تعثره، رأى إيفانَ قد ثُبِّت على الجدار بإبرة. انحنى إيفان بهدوء مستديرًا حول محوره ببشاعة.

غطى كافاليروف وجهه بيديه حتى لا يرى أو يسمع شيئًا. لكن كل ما سمعه كان رنينًا. صعدت الآلة درجات السلم.

بدأ يصيح بكل قوته:

- لا أريد ذلك! سوف تقتلني! العفو! العفو والسماح! لست أنا من ألحق الخزي بالآلة. لست مذنبًا! فاليا! فاليا! أنقذيني!

-١٢-

ظل كافاليروف مريضًا لثلاثة أيام. هرب فور أن تعافى.

نهض ناظرًا صوب موضع واحد؛ زاوية تحت الفراش. ارتدى ثيابه كآلة، وشعر فجأة بعروة جلدية جديدة في حمالتي السروال. أزالت الأرملة المشابك الإنجليزية. من أين أتت بالعروة؟ هل نزعتها من حمالتي سروال زوجها القديمتين؟ أدرك كافاليروف كاملا مدى وقاحة موقفه. هرب عبر الرواق دون سترة. في الطريق نزع عنه حمالتي سرواله وتخلص منهما.

عند منعطف الطريق توقف عند الملعب. لم تتناه إليه أي أصوات من الرواق. حينها سار فوق أرضية الملعب واختلطت الأفكار في ذهنه تمامًا. راودته مشاعر عذبة: ضعف وفرح. كان الصباح رائعًا. هب نسيم رقيق - كأنك تتصفح كتابًا بالضبط - وازرقت السماء. وقف كافاليروف في مكان قذر. اندفعت قطة من سلة مهملات خائفة مما أطلقه كافاليروف، فقد انهمرت عليها قذارة ما. ما الملمح الشعري الذي يمكن أن نجده في بيت الحمام هذا الذي ترافقه لعنات كثيرة؟ لكنه وقف هناك رافعًا رأسه، باسطًا ذراعيه!

في هذه اللحظة شعر أن اللحظة قد حانت وأن الحاجز قد زال بين وجودين؛ حان وقت الكارثة! انفصل! انفصل عن كل ما كان! الآن، ودون إبطاء، في مدة لا تتجاوز نبضتي قلب يجب عبور الحافة وتجاوز تلك الحياة المقززة المشوهة... إنها لا تنتمي إليه، بل هي حياة غريبة أُجبِر عليها، وسيتجاوزها الآن...

وقف فاتحًا عينيه عن آخرهما، وقد خفق كل شيء واكتسب حمرة على مجال البصر بفعل الهروب والاضطراب وضعفه الذي لم يكن قد فارقه بعد.

أدرك إلى أي مدى قد سقط. كان عليه أن يعبر تلك الحافة. عاش حياة سهلة للغاية، مكتفيًا ذاتيًا، وكان رأيه في نفسه مبالغًا فيه بشدة، رغم كسله وبؤسه وشبقه...

أدرك كافاليروف كل شيء أثناء قفزه بالقرب من برج الحمام.

عاد والتقط حمالتي سرواله وارتداهما. تناهت إلى آذانه رنين ملعقة الأرملة، لكنه ترك المنزل دون أن يلتفت.

قضى ليلته مجددًا في الجادة، ثم عاد، لكن تلك المرة كان قراره حاسمًا.

«سوف أجعل الأرملة تلازم مكانها الصحيح. لن أسمح لها حتى أن تتحدث عما جرى. لا يعرف أبدًا المرء ما يمكن أن يحدث له أثناء السُكْر. لكني غير قادر على العيش في الشارع».

كانت الأرملة تُسخِّن شيئًا صغيرًا فوق الموقد. نظرت إليه بطرف عينيها وابتسمت بكبرياء. دخل الغرفة. كانت قبعة إيفان موضوعة على زاوية الخزانة.

كان إيفان جالسًا على الفراش، يشبه أخاه، ولكن بحجم أصغر قليلا. أحاط الدثار به كالسحابة. كانت زجاجة نبيذ موضوعة على الطاولة. رشف إيفان من كأسه نبيذًا أحمر. بدا انه استيقظ منذ فترة قصيرة، فلم تكن آثار النوم قد فارقت وجهه بعد، وكان يهرش موضعًا ما في جسده ناعسًا تحت الدثار.

سأل كافاليروف سؤالا كلاسيكيًا:

- ماذا يعني ذلك؟

ابتسم إيفان بوضوح.

- هذا يعني يا صديقي أن علينا أن نشرب. أنيتشكا... اجلبي كأسًا.

دخلت أنيتشكا ومضت صوب الخزانة. قالت بينما تحتضن كافاليروف

- لا تغِر يا كوليا[1]. إنه وحيد للغاية مثلك. أنا أشفق عليكما.

سأل كافاليروف بهدوء:

- ماذا يعني ذلك؟

قال إيفان بغضب:

- لماذا التركيز على ذلك؟ هذا لا يعني شيئًا.

انسل من الفراش حاملا سرواله الداخلي، وصب نبيذًا لكافاليروف قائلا:

- فلنشرب يا كافاليروف... لقد تحدثنا كثيرًا عن المشاعر ونسينا الأمر الرئيس يا صديقي... نسينا

(١) صيغة تحبب لنيكولاي (نيكولاي كافاليروف).

اللا مبالاة، أليس كذلك؟ في واقع الأمر أعتقد أن اللا مبالاة هي أفضل حالات الإنسان العقلية. فلنكن لا مبالين يا كافاليروف! انظر! لقد استعدنا هدوءنا يا عزيزي. اشرب... نخب اللا مبالاة! أورا! نخب أنيتشكا! بالمناسبة... اسمع: سأخبرك أمرًا طيبًا... اليوم حان دورك لتنام مع أنيتشكا. أورا!

١٩٢٧م



الحسد

تتناول الرواية واحدة من أهم الأفكار التي أُثيرت على الساحة في بداية العصر السوفيتي؛ إنها قضية "المواطن السوفيتي الجديد".

طرح لينين والسلطة السوفيتية الأولى تصورًا محددًا عن المواطن السوفيتي وهو تصوّر: "البطل الاشتراكي" الذي امتلأت به صفحات الأعمال الدعائية للسلطة التي انتهجت أسلوب الواقعية الاشتراكية.

في هذا العمل يكشف لنا "الحسد" عن رجلين يرفضان العالم السوفيتي الجديد، ويحسدان أبطاله الجدد، ويندّدان بقيَمِه الآلية التي ستقضي على كافة المشاعر والعواطف في سبيل الأيدولوجيا وسيطرة الآلة، لكن الفشل يلازمهما طوال الوقت.

يغوص العمل في تناقضات معقدة بين العالم القديم والجديد، الأغنياء والفقراء، الكراهية والحب. هذه الصراعات هي التي شكلت المجتمع السوفيتي الجديد في تلك الفترة، وبالتالي تُطرح التساؤلات عن ماهية البطل الحقيقي وسُبُل الخلاص.

"الحسد" رواية عن روسيا التي لا تصدَّق، في فترة مربكة للغاية؛ روسيا المليئة بالأحلام والأكاذيب والخداع، وبالطبع: "الحسد".


ISBN 978-603-03-6122-9



